

مركزية التجربة الأندلسية في الوعي التاريخي العربي الإسلامي

الدكتور: نور الدين الصفي
أستاذ مساعد بالمعهد الأعلى لعلوم الدين

قراءة في تجليات هذه التجربة

المقدمة :

تحتل التجربة الأندلسية مساحة هامة في التاريخ الإسلامي نظرا لثرائها وعظمة إبداعها وعمق تأثيرها في الحضارة الإنسانية. وهي تجربة تتميز بما

قدم البحث في الذكرى خمسمائة لسقوط غرناطة

الرياض - نوفمبر 1993

عرفته من تناقضات في الأوضاع، الشيء الذي جعلها تعانق قمة الروعة فيما جاد به الفكر الإنساني، وتحقق أبداع الانتصارات في مختلف مجالات المعرفة البشرية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، قدر لها أن تعيش أسوأ لحظات الهزيمة والانتكاسة والخيبة. هذان القطبان الفاعلان تجاذبا المنظومة الحضارية الاندلسية طيلة ثمانية قرون، تقاسم فيها المسلمون نخوة المجد وذلّ الانكسار، كما ذاقوا لذة الشموخ ومرارة الانهيار. وكل ما يقال عن هذه التجربة أنها كانت فريدة من نوعها، لم يعرف لها التاريخ مثيلاً. ولا شك أن هذه التجربة، بأفراحها وأتراحها، شكلت حيزاً زمنياً هاماً، ومادة غزيرة في سجل التاريخ الاسلامي. لقد تركت هذه التجربة بصماتها وأثرها العميق في التاريخ العربي الاسلامي، فصبغته بمختلف تفاعلاتها وأضفت عليه ميزة اهتزازاتها السلبية الموغلة في السقوط، ووشحته بأروع ابداعاتها وجديد عبقرية أهلها. لقد كانت الاندلس أرض البطولة والعطاء الذي لا ينضب، والخير الذي لا ينتهي. كانت شامخة تتهادى بخيراتها، وفضائل تسامحها، وعلمها الرفيع وفنها الاصيل، وهي اليوم تغازلنا من بعيد بما خلفته من تراث نافع، ندي الذكريات لنا منه ألف عبرة وعبرة، هذه نظرة ميتافيزيقية متعالية لهذه التجربة الخالدة، وسأحاول من خلال بحثي هذا تتبع خصائص هذه التجربة وتنزيل منظومتها المعرفية في إطارها الحقيقي، مع رصد كل الخبرات والتجارب التي سجلها التاريخ بشهادة - الاجانب - واعترافاتهم حتى نكون على بينة من أمر هذه الاشكالية وقادرين على فهمها وإعطائها ما تستحق من قيمة، وننزلها المكانة التي تليق بها، وبذلك ننصفها ونبرز مركزيتها في تاريخ الاسلام والمسلمين، وفي سجل الحضارة الانسانية، يوم ساهمت في إثرائها ومكنت الغرب من الاستفادة من تراثها الغني، فبنى نهضته ومضى. وهو اليوم بعد نكرانه الطويل وجحوده، تطل علينا أبحاثه ودراساته معترفة بهذا الفضل وداعية إلى رد الاعتبار لهذه التجربة الاندلسية الخالدة. وسأحرص في الان نفسه، وبالتوازي مع رصد عملية هذه التجربة، على استقراء وقع هذه التجربة، وتأثيرها في المسار

التاريخي للامة العربية الاسلامية في عصورها الحديثة، وهي تحاول استعادة مكانتها، وتسعى لبناء حضارة جديدة قادرة على مواكبة كل مظاهر الحداثة ومقتضيات العصر، متأصلة في جذورها العربية الاسلامية وتواقة نحو التقدم والازدهار. فما هي هذه التجربة؟ وما هي آثارها؟

أ. تجليات التجربة الاندلسية

1 - قيمة التجربة الاندلسية :

تمثل التجربة الاندلسية حلقة هامة في سجل تاريخ الاسلام والمسلمين سواء كان ذلك على مستوى عطائها الحضاري المحلي، أو على مستوى إشعاعها العالمي الخارجي. وذلك أن بلاد الاندلس كانت تمثل همزة وصل حساسة تفاعل داخل منظومتها الحضارية المحصول المعرفي الشرقي الاسلامي والتراث الغربي الاوروبي. فكانت تعتبر بوابة عبور للرافد الثقافي العربي الاسلامي حيث مكنته من الالتحام بالمخزون الثقافي الغربي. والاندلس، إلى جانب صقلية يحق لها أن تكون إحدى أهم مراكز الإشعاع الثقافي التي جسدت واقع الميثاقفة «Acculturation» الحضارية. ذلك الضرب من العطاء المتنامي الذي أبهر العالم بما أفرزه من انتاج ضخم في كل مجالات المعرفة والفنون الانسانية. ولا نغالي إذا قلنا أنها تجربة خاصة تبلورت منظومتها خارج دائرة الزمن لتكون درسا استفاد منه الغرب، وعبرة للمسلمين. هذه التجربة تمثل جانبا من جوانب ميثاقفيتها التاريخ التي تجسم حقيقة الحتمية المتعالية التي لم تتكرر صياغتها ولم تخضع لاحكام جدلية الدورة الخلدونية كما تعدت في تقديراتها تنظير (سبنغلر - Spengler) الذي يعتبر كل ثقافة «هي في حد ذاتها عينة فريدة لاحوال أهلها مهما كانت علاقتها بنظيرتها التي تفاعلت معها، ولكنها دائما تحمل في طياتها تراكمات

الماضي وخبرات المواجهة حتى تعبر عن نفسها كما هي» (1) فلا الدورة
الخلدونية ولا التنظير الغربي أدركا البعد الحقيقي للتجربة الاندلسية التي
نشأت، لا لقموت موت الحضارات الاخرى، وإنما لتجسم في إحياء جديد
وبعث متجدد في اطار التماثل الحضاري الذي تتصارع قوى حب السيطرة
والحرية، باعتبار السيطرة هي وجه الصراع في التاريخ، والحرية هي الابداع
والغلبة دائما للابداع حتى لو كانت السيطرة مطلقة. (2) كلا ولن تكون - في
هذا الحيز التنظيري، كان لنا السبق في الابداع حتى وان حكم علينا بافساح
المكان لغيرنا. تلك هي الحقيقة التي لا بد لنا أن نعيها ويعيها معنا الآخرون.
ذلك أن العبرة لا تكون الا بما يدوم لله وللنشر - قال تعالى : «وأما ما ينفع
الناس فيمكنك في الارض» (3) لقد قدمنا خدمات جمّة للبشرية جمعاء اعترف
بفضلها البعض وانكرها البعض الاخر وفي ذلك تقصير من جانبنا ومغفلة
من جانبهم (أي الآخرون).

لقد اعترف البعض بأن أنوار الغرب اشعت من بلاد الاندلس غير أن
البعض الاخر سعى الى طمس هذه الحقيقة واسرع الى خنق صوت الحق.
قال تعالى : «ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.» (4)

لقد مكثنا زمنا طويلا مدانين، ونحن أبرياء، لكن تعوزنا الحجة - أي
حجة البراءة - وللحصول عليها نحن في حاجة الى قراءة تاريخية نقدية،
وعلم تاريخي وفللوجي لكل مظاهر حياتنا قديما وحديثا حتى نتخلص من
رطوبة الخيال وعبق الاوهام. وإذا كان نيتشه (NIETZSCHE) (5) قد ادان
هذه الظاهرة قديما، فنحن نطلبها اليوم ونسعى اليها حتى ندخل في عملية
استكشاف تاريخية لثرائنا.

ان التجربة الاندلسية تترقب منا قراءة مستنيرة تزيع حجب الجهالة عنها

(1) انظر: Spengler OSWALD : Declin de l'Occident in Encyc. Française, Tome XX 5: (20-10-15).

(2) انظر: GUIZOT François : Histoire de la civilisation en Europe. In Ency. Française: Tome XX (20-10-15).

(3) سورة الرعد - الآية 17

(4) سورة التوبة - الآية 32

(5) انظر: NIETZSCHE : Seconde considération intempestive de l'Unité et de: l'inconvénient des études historiques ed. Flammarion 1988.

وتنصفها بين أهلها وأعدائها. هي قراءة صادرة عن حس تاريخي مرهف قادر على رؤية الظواهر ضمن منظورها التاريخي المتعالي، بعيداً عن كل مظاهر التعميم وإطلاق الأحكام الفجة وترويج الإشاعات المغرضة والمتعصبة للعرق والدين. في هذا الإطار تنتزل التجربة الاندلسية لكي تكون بحق تجربة خير وعطاء نتعامل معها بفكر قادر على رصد حركة التاريخ والتفاؤل بمساره المستقبلي داخل منظومة معرفية انسانية كونية.

2 - لماذا التجربة الاندلسية؟

لقد بات من المسلّم لدى الباحثين بأن تجربة الاسلام في الاندلس أيام الفتح الاولى هي أشبه بما وقع في الجزيرة العربية يوم طلع عليها نور الاسلام ليزيح ظلمة الكفر والنفاق ويقتل في المجتمع ما يعقده ويشده إلى الوراء. لقد كانت الارادة الالهية، أو ما يعبر عنه الباحثون بالاحتمية التاريخية أو الصيرورة الميتافيزيقية وراء هذا التحول الجذري في تاريخ شبه جزيرة ايبيريا أنه نفس الدور الذي تمثل في انقاذ الشعوب العربية في الشرق يعاد لانقاذ شعوب المغرب والاندلس.

ولو حاولنا استقراء الواقع التاريخي وتتبعنا احوال الاقطار والشعوب في الغرب الاوروبي فإننا نجد نفس المعطيات التي عهدها الشرق قبل الاسلام. ففي أوروبا عامة كان الوضع، كما يقول (بيروي PERROY) متصفا بالتعفن والانحطاط. «وهكذا ما كادت شمس القرن الرابع (ميلاد) تميل نحو الغروب حتى رأينا التحول (السقوط والانهيال) يخيم على المدينة في الغرب دون أن يشعر الناس فعلاً بحقيقة ما يجري أمامهم أو يقع حولهم». (6) هذه شهادة عن زمن الافول ويضيف أحد المؤرخين الآخرين متحدثاً عن اوروبا وقرطبة، حيث يقول على الاولى : «... كانت أوروبا في هذا العهد غارقة في حمأة من الجهل وخشونة الاخلاق»، ويضيف في نفس الموضع ذاكر الثانية - أي قرطبة - : «... وقت كانت اوروبا غارقة في الجهالة البربرية. كانت هي - أي قرطبة - فريسة للشقاق والحروب» (7) أما الشهادات التي أوردها

(6) بيروي ادوارد:

القرون الوسطى - تعريب يوسف اسعد داغر - وفريد داغر - منشورات عويدات بيروت لبنان 1965. ط 1 - ص 18.

(7) انظر: STANLEY Lane-Pool : The moors in Spain. London 1897 ص : 129

المؤرخون والرحالون العرب عن أحوال هذا القطر فهي كثيرة لا تحصى ولا تعد. ويكفي أن نشير على سبيل المثال الى ما أورده ابو الخطاب بن دحية الكلبي الاندلسي (ولد سنة 547 هـ وتوفي سنة 615 هـ) في كتابه (المطرب من أشعار أهل المغرب) وما ذكره ايضا صاعد الاندلسي في كتاب (طبقات الامم) وكذلك ما أطنب في وصفه البكري في كتابه (المسالك والممالك). لقد أجمعوا كلهم على استثناء مظاهر التوحش واستفحال حياة الجهالة في اوروبا عامة وفي جزيرة ايبيريا على وجه الخصوص حيث يذكر ابراهيم بن يعقوب الاسرائيلي الطرطوشي ان «اهل اسبانيا كانوا اهل غدر ودناءة اخلاق وأنهم لا يتنظفون ولا يغتسلون» (8) هذه المظاهر كانت العلامة المميزة للحياة في اوروبا في وقت كان يعيش فيه العالم العربي الاسلامي عصوره الذهبية، يعانق الكمال وتتناغم في ربوعه العطاءات الفكرية والادبية والعلمية. فأى مستقبل سيكون لاروبا لو تமادت على تلك الاحوال المتردية والاضاع المنهارة التي أورثتها النظم الاقطاعية (عصور الامبراطورية الكارولنجية)، وزجت بها في متاهات ظلم رجال الدين (تسلط الكنيسة)، واستهتار ارباب السياسة والحكم (الفضائح الاخلاقية)، وفساد المجتمع (انحلال القيم وتراجع الفضائل)، وانتهاك حرمة الانسان (العبودية والاستغلال) ؟ كل ذلك مثل صفحة قاتمة في تاريخ اوروبا الذي يفخر به البعض ويدعي ان هذه القارة «كانت بطبعها سائرة نحو التطور والرقى وأن العرب لم يكن لهم أدنى تأثير عن طريق اسبانيا» (9).

هنا لا بد من محاكمة التاريخ ومعالجته على الاقل من وجهة النظر الخلدوني التي تقرر أن فساد الاخلاق يعدم الابتكار، ويقتل الحياة والانتاج ويؤد الحضارة ويهلك الخلق : «واذا فسد الانسان في قدرته على اخلاقه ودينه، فقد فسدت انسانيته وصار مسخا على الحقيقة» (10) من هنا نتبين قيمة الثورة الاجتماعية التي احدثها الاسلام في ربوع جزيرة الاندلس والنقلة النوعية التي حققها الانسان الجديد في غرب اوروبا.

(8) البكري: أبو عبيد: المسالك والممالك. قسم جغرافية الاندلس وأروبا. تحقيق عبد الرحمان علي الحجي. بيروت لبنان 1968. ص 81

(9) انظر: OLGUANE IGNACIO : Les Arabes n'ont jamais envahi l'Espagne, Paris., Flammarion 1969 p. II

(10) ابن خلدون عبد الرحمان: المقدمة دار الكتاب اللبناني، بيروت 1956. ص 674

3 - حتمية التجربة الاندلسية :

ما بين سنة 92هـ / 711م تاريخ الفتح الاسلامي وسنة 897هـ / 1492م تاريخ سقوط غرناطة، وعلى امتداد ثمانية قرون من البذل والعطاء ترتسم في عمر الزمن حقبة خير ووفاء من الانتاج الديني والدينيوي تركت بصماتها على جبين الدهر، فازدان بها التاريخ وتباهت بها الحضارة البشرية - انها تجربة المسلمين التاريخية في ربوع الاندلس - وهي تجربة قدر للتاريخ ان يعيشها لعل الانسان يعي ابعادها وهي أيضا حتمية كتبها الله على الدهر لتكون حلقة من حلقات الحضارة الانسانية المتنامية اذا امكننا بأن الحضارة «لا تركز الى الوقوف والاستقرار وهي سفر متواصل متجدد وليست من المواني التي تنتهي عندها السفرات. لذلك لا يمكن تحديد هدفها لانها لا تملك هدفا» (11) وسط هذه السيولة من التراكبات التي يحفل بجمعها التاريخ، حدث ذات مرة أن كانت الاندلس - دنيا وحضارة وشعبا - لقد وجدت لتنتهي وبانتهائها سجل الزمن خلودها ولم يشعرنا بموتها واندثارها تلك هي الحقائق التي تعج بها التنظيرات للحتمية التاريخية ويتباهى بها الوعي التاريخي الجماعي الذي تحكم آلياته الفلسفة التاريخية النقدية. وما دامت الاندلس صورة من صور تجليات التاريخ ومحطة حتمتها سيولة الزمن وزككتها جدلية الحركة التاريخية فلا مجال لانكارها أو غض الطرف عنها أو الاستهانة بها، فكثيرا ما يكون الانكار وجه من أوجه التدليل.

4 - مركزية التجربة الاندلسية في التصورات العربية والاروبية :

لقد حظي التاريخ العربي الاسلامي الاندلس باهتمام كبير من قبل المؤرخين العرب المسلمين والمؤرخين الغربيين وذلك لما يكتسبه من ارتباط بالتاريخ الاندلسي بأروبا من جهة وبالعالم العربي الاسلامي من جهة أخرى.

هذه الاهمية الفاعلة والمركزية الحساسة تعود أساسا الى تمسك كلا الطرفين بالحقب التاريخية الاندلسية واعتبارها مكونا هاما للشخصية التاريخية القومية والحضارية. هذا الحرص والتأكيد من الجانبين أدى إلى بروز قراءات مختلفة وتصورات متعددة للتجربة الاندلسية سواء كان ذلك

(11) انظر: TOYNBEE (Arnold) : L'histoire Paris 1975 p. 17.

في التراث العربي أو في التراث الغربي، فما هو صدى التجربة في التراثين؟
أ - التراث العربي الاسلامي : لقد تعامل العرب المسلمون مع التجربة الاندلسية من واجهتين : داخلية وخارجية.

- الواجهة الداخلية : وتمثل النظرة المحلية اي انعكاسات وتأثيرات تلك التجربة على اهلها الذين يعتبرون عناصر فاعلة فيها. هذه النظرة جسمتها أجيال من النخب المفكرة احتوت ثمانية قرون من البذل والعطاء والانتصار والهزيمة بحيث كانت نظرة تطويرية متنامية تناغمت فيها مختلف التصورات وتصارعت عديد الانتماءات وتبلورت كثير من القراءات الادبية منها والتاريخية. واذا استقرأنا الكتابات الاندلسية في هذا المجال، وهي انتاجات ضخمة نذكر على سبيل المثال منها :

— خلف بن حيان صاحب كتابي (المقتبس) (12) و (كتاب المتين) (13) (ق4و5هـ)

— عبد الملك بن حبيب (ق2و3هـ) الملقب بعالم الاندلس وصاحب كتاب التاريخ (14)

— محمد بن موسى الرازي (ق3هـ) صاحب كتاب الرايات الذي اندثر ولم يبق منه إلا بعض المقتطفات بين ثنايا المؤلفات التاريخية.

— أحمد بن محمد بن موسى الرازي (ق4هـ) صاحب كتاب (أخبار ملوك الاندلس) وكتاب (انساب مشاهير الاندلس) (15). هذه الكتب ضاعت ولم يعرف له الا البعض من (صفة جزيرة الاندلس) (16).

— أبو بكر بن القوطية (ق4هـ) (صاحب كتاب تاريخ افتتاح الاندلس) (17) الذي لا يذكره ابن الفرضي في (تاريخ علماء الاندلس).

— ابن حزم القرطبي (ق4و5هـ) صاحب كتاب (جمهرة انساب العرب) (18)

(12) المقتبس: حقق البعض منه عبد الرحمان علي الحجي ومحمد علي المكي.

(13) المتين: ورد الكثير منه في (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لابن بسام تحقيق احسان عباس. طبع بيروت 1978 (كما ضاع الشيء الكثير منه).

(14) مخلوط بمكتبة بودليان باكسفورد (288).

(15) انظر: ابن الأبار: التكملة، طبعة مدريد 1886، والقاهرة 1956

(16) انظر: 1955 Madrid. Historia de Espana. MENDEZ PIDAL RAMON

(17) ترجمه الى الإسبانية ريبيرا مع مقدمة - نشر مدريد 1926

(18) اعتنى به المؤرخون: أسين بلاثيوس ونشر وحقق له ليفي بروفنسال، كما حققه عبد السلام هارون. القاهرة 1962.

- ابن الخطيب : (ق8هـ).

هؤلاء المؤرخون وغيرهم تعاملوا مع الظاهرة التاريخية الاندلسية بميولهم وعواطفهم الخاصة، فجاءت مؤلفاتهم ترشح بكتابات حية ودقيقة وتنم عن تعلق والتصاق بالواقع المعيش وهو ما يمكن أن نعرفه بالمخاض الذي انتجته المعانات الداخلية.

- الواجهة الخارجية : ونعني بذلك المؤرخين المسلمين وغير المسلمين الذين تركوا تأليف هامة تتعلق بتاريخ الاندلس. هذه المؤلفات كتبها مغاربة ومشاركة وكانت نظرتهم الى التجربة الاندلسية مختلفة. ففي حين يرى المشاركة ان التجربة الاندلسية هي امتداد لتاريخ المشرق العربي (19) فان المغاربة يعتبرون، قديما وحديثا، ان ثقافة الاندلس لها هيكل متميز ونظارة خاصة وانها تمتاز بخصائص منفردة تمكنها من امتلاك منظومة معرفية مستقلة عن غيرها ومتطورة. وهذا ما نلمسه على سبيل المثال في كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لابن بسام حيث يقول ناقدا من تأثر بأهل المشرق : «...إلا أن أهل الافق، ابوا الا متابعة أهل المشرق، يرجعون الى اخبارهم المعتادة، رجوع الحديث الى قتادة، حتى لو نعتق بتلك الافاق غراب، أوطن بأقصى الشام والعراق ذباب بحثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما. وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة، مرمى القصبة، ومناخ الرذيلة لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد...» (20)

ان فكرة التأثير هذه لا بد أن يفرد لها باب خاص يقع من خلاله تقصي التراث وتطوره.

ب - التراث الغربي :

تحتل التجربة الاندلسية مكانة هامة في التراث المعرفي الاسباني وهذا ما يتجلى اساسا في كتابات احدث الباحثين الاسبان في هذا الميدان امثال :

MIQUEL ASIN PALASIOS : ميكيل آسين بلاتيسوس :

GARCIA GOMEZ : غرسيا غوميز :

RAMON MENENDEZ PIDAL : رامون مينندث بيدال :

(19) احسان عباس: الشعر الاندلسي والاخلاق. في كتاب (دراسات في الأدب الاندلسي) نشر لبيبي تونس 1976، ص 9

(20) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق احسان عباس، بيروت 1978 ص 12

JUAN VERNET

VIVENS VIVES

RIBERA Y TARRAGO

- خوان فيرنيت :

- فيسنس فيفيس :

- ريبيرا :

هذه المجموعة من الباحثين مثلت تيارا خاصا اهتم بمواطن الحضارة العربية الاسلامية بالاندلس وتتبع اثارها في مختلف المجالات المعرفية الغربية. ولا شك أن هذه المدارس تكونت نتيجة الصراع الايديولوجي السياسي الموزع بين قضية انتساب أو عدم انتساب هذه التجربة الى التاريخ الاسباني بدرجة أولى، وإلى التاريخ الاروبي بدرجة ثانية. هذا الصراع القائم بين نظريتي الرفض والاثبات بخصوص مكانة الارث الحضاري الاندلسي يتجلى صده في كتابات : كاسترو (21) وسانشيز (22) التي أثارت جدلا عميقا حول هذه القضية. ففي حين يتمسك كاسترو بمكانة التجربة الاندلسية وتأثيرها في اهم اطوار التاريخ الاسباني عندما يقول : «كانت اسبانيا في القرون الوسطى نتيجة تأليف بين موقف الخضوع والاعجاب امام عدو متفوق وراق وامام المجهود للتغلب على ذلك الموقف الضعيف نفسه..(23) اما سانشيز فانه يقطع مع هذه التجربة ويؤكد على قيمة المقاومة الاسبانية للعرب الغزاة ومكانتها في الحفاظ على الشخصية الاسبانية بعيدا عن التأثيرات الهامشية. فلا العرب ولا اليهود لهم تأثير : «لئن تجمع بين النار والماء أيسر من العثور على وشائج القرابة بين ما هو اسباني وما هو يهودي (24) هذه نظرة المؤرخين الاسبان وسنتعرف على المزيد منها عند استعراضنا لبقية عناصر البحث.

5 - مكانة هذه التجربة ومركزيتها في التاريخ العربي الاسلامي :

اذا استقرأنا تاريخ الامة العربية الاسلامية منذ بزوغ شمس الاسلام واعلاء كلمة التوحيد والقضاء على الشرك والبهتان، فاننا نلاحظ ان لحضارة الاسلام سجلا تاريخيا حافلا بالامجاد والبطولات على امتداد

(21) كاسترو: CASTRO AMERICO : Espana en Su historia, Cristianos, Moros y Judios: Bvenors Aires - 1948

(22) سانشيز: CLAUDIO SANCHEZ - AL BORNOZ : Espana, un enigma historico. Buenos Aires

(23) كاستور: اسبانيا: ص 14

(24) سانشيس: اسبانيا: ص 175

ردهات تاريخية متعددة الازمنة، انطلاقا من صدر الاسلام، ومرورا بالعصر الاموي ثم العصر العباسي ومنه الى الخلافة الفاطمية ومن بعدها الخلافة العثمانية، لننتهي الى ما نحن عليه اليوم. واذا كانت هذه الحلقات تمثل ابرز الازمنة التاريخية التي عرفتھا الحضارة الاسلامية في المشرق والمغرب، فان لتجربة المسلمين بالاندلس مكانة متميزة يحق لها أن تجسم بذاتها زمنا حضاريا مستقلا، لا يقل أهمية عن الازمنة الحضارية الاخرى بل يتعدها ويتميز عنها لما يكتسبه من خصائص ومميزات فريدة قل أن نجد ما يضاهيها في تجاربنا الاخرى. هذه المميزات التي شكلت نسيجا خاصا لهذه التجربة الحضارية افصح عن بعض وجوها ما سنورده منها على سبيل الذكر لا الحصر :

أ - أن ما تمخض عن التجربة الاندلسية يمثل عصارة التلاحق الحضاري و خلاصة الخبرة الحضارية للشرق الاسلامي والغرب المسيحي.

ب - تمثل جزيرة ايبيريا الوعاء المادي والمعنوي الذي تفاعت فيه الحضارتان : الشرقية والغربية. يقول (دوفرجي DUVERGER) : «...الاندلس هي كل ما في اسبانيا من روعة ... لانها ملتقى الشرق والغرب.»(25)

ج - تعتبر بلاد الاندلس ابرز ارضية حوار ومواجهة بين الاسلام والمسيحية واليهودية حيث تفاعلت الموارث العقائدية لتصوغ شكلا حضاريا تميز بابداعاته في مختلف المجالات المعرفية والاجتماعية والسياسية والعمرانية وذلك نظرا لما اصبغه الاسلام على الحياة من مظاهر الألفة والتسامح(26).

د - لقد مثلت الاندلس ابرز بوابة عبور للتراث العربي الاسلامي لنختلط بخبرات وتجارب وعادات شعوب واجناس متعددة. وبذلك افرزت منظومة اجتماعية قل ان تجمع عناصرها لغيرها في حالات اخرى.

هـ - اذا اعتبرنا ان فتح الاسلام لجزيرة الاندلس يمثل ثاني عصور الفتح الاسلامي فاننا ندرك قيمة هذا الفتح من حيث سهولة الانتشار وعمق

(25) دوفرجي: الاندلس I، Paris 1980, vol. I, in ency Univ. DUVERGER (M) : p. 1023

(26) انظر: HENRI PERES : La poésie Andalouse en arabe classique p : 252
- محمود مكي: التشيع في الأندلس. صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمريد 1954 مجلد II

التأثير وبعد التماثل.

و - ان التقلبات التي عرفها المسلمون في جزيرة الاندلس شكلت اطارا خاصا ميز مظاهر الحياة في هذه المنطقة واضفى على عطائها سحر الروعة والابداع حتى في احلك ايام الاحتضار. يقول ليفي بروفنسال: «... ان لمظاهر الافراح في الشعر الاندلسي طعم خاص، وللاتراح فيها نكهة منفردة...» (27) هذه بعض العينات التي انفردت بها هذه التجربة و نهلت من فيضها اسرار وجودها، الشيء الذي بوأها لاحتلال مرجعية هامة ومركزية حساسة في التاريخ العربي الاسلامي.

6 - عظمة هذه التجربة و ثراؤها الحضاري :

ليس من السهل تنزيل هذه التجربة منزلتها الحقيقية، بل من الصعب انصافها والاعتراف بفضلها على البشرية ما دما نحن - العرب المسلمون - نتغنى حاملين «بعهود الاندلس الذهبية» (28). وفي المقابل يردد الغرب انشودة الرفض ويولي وجهه نحو «العصر الوسيط المظلم» (29) لقد طال عهد الرفض، وها هي العقود الاخيرة تطل علينا حاملة لواء الانصاف والموضوعية التي بدأت تعترى الدراسات الاندلسية وتقدمها في ثول جديد قوامه الاعتدال وعدم المغالات لا في السلب ولا في الايجاب. فبالقدر الذي يجب ان نتخلى فيه، نحن المؤرخون المسلمون - عن مظاهر الاطراء والزهو والتعالي، يجب على الغرب ايضا ان يخفف من حقه الذي لا يجدي نفعا، وانما يزيد الشقة بعدا، ويعمق الهوة بين الحضارتين. لقد انتهى زمن الجدل الذي قام بين : (سانشيس البورنوث (SANCHEZ ALBORNOS) و (امريكو كاسترو (CASTRO) وهو ما اشرنا اليه سابقا.

هذا الجدل الحاد الذي قام في صلب التصورات التي افرزتها المدرسة الاسبانية حول مكانة التاريخ العربي الاسلامي في الاندلس ومكانته في التاريخ الغربي. وقد تميز ذلك بالرفض القاطع الذي ابداه سانشيز في هذا الجانب.

نحن اليوم في حاجة الى الاقتراب اكثر حتى نقيم حضارة متوسطة

(27) انظر: LEVI-PROVENÇAL : Histoire de l'Espagne musulmane Paris 1970, p. 271.

(28) مؤنس حسين: رحلة الاندلس (حديث الفردوس المفقود) الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة 1963، ط 1 طص 7

(29) سانشيز البورنوث: اسبانيا والاسلام أو تاريخ تاريخ اسبانيا المسلمة ص 5

قوامها الاخاء ومرجعيتها : منظومة تاريخية متوسطة متكاملة.

ان فضل الاندلس الى جانب صقلية لا يستهان به، بل يمكن القول والاقرار بأن جزيرة الاندلس تمثل لوحدها الحلقة التي لا بد منها لاحكام الربط الحضاري بين المشرق العربي الاسلامي وبين الغرب الاروبي من أجل مستقبل افضل للبشرية جمعاء ولحوض البحر الابيض المتوسط حتى يبقى بحيرة أمن واطمئنان. ان فضل الاندلس شهد به الغربيون الذين انصفوا الحضارة الاسلامية قبل ان يتبناه العرب المدافعون عن مجدهم التليد. فهذا (سانشيز) يقول : «هناك من الادلة ما يقوم حجة على ما افاد به العرب العالم الغربي. فقبل قرون من عصور النهضة الاوروبية كانت مصادر المعرفة ترفل في جحافل الإبداع بقرطبة، ومنها انتقلت إلى العالم الجديد، حاملة خبرات الماضي ومستوعبة أصول المعرفة القديمة والتراث البشري الاصيل...» (30) وفي نفس السياق يضيف (لويس فياردو) - وكلام العارفين حجة - : «... أنه منذ نشأة الحضارة العتيقة والى غاية تحقيق النهضة الحضارية، كان العرب هم اساتذة اروبا في هذا المجال...» (31) ان الاعتراف بفضل هذه التجربة وعظمة تراثها الحضاري ورد على لسان ليفي بروفنسال في قوله : «... ان الاندلس ستبقى مثلما كانت اليونان بالنسبة الى روما» (32) من حيث المركزية المعرفية والمجد الثقافي والحضاري. هذه الاعترافات ليست من قبيل المجاملة والا لما وردت على افواه بعض المناوئين لمثل هذه الحقائق التاريخية والمغالطين لها. رغم ما لاقته من مواجهة حازمة ووقفة بطولية من قبل المنصفين الذين يتصدى البعض منهم لمثل هذه المغالطات وينافح عن طريقة ومنهجية كتابة التاريخ فيقول : «... ان فضل التاريخ يتمثل فيما يوفره لنا من دروس وعبر لذا لا يجب ان ندلس حقائقه ونقلب معطياته - ذلك ان الانصاف يبقى اهم ميزة للمؤرخ...» (33)

(30) سانشيز: اسبانيا والاسلام ص 6

(31) فياردولويس: تاريخ العرب، ص 223 Histoire des arabes et des Mores d'Espagne. Paris 1851 vol. II p : 223

(32) ليفي بروفنسال: الحضارة العربية في اسبانيا ص 5 La civilisation des Arabes en Espagne. Paris 1948 p. 15

(33) انظر: M DE MARBES : Histoire de la domination des Arabes et des maures en Espagne et en Portugal. Paris 1825 p. 14.

هذه الموضوعية لم تلق تجاوبا عند الباحث الانكليزي المهتم بالحضارة العربية الاسلامية في الغرب الاسلامي (اي الاندلس) وهو (ديريك لوماكس) الذي رغم جحوده واحجائه عن الاقرار بالحقائق التاريخية، فانه لا يجد مفرا من القول والتصريح بأن : «ما كسبته اسبانيا من خبرة في كل المجالات كان نتيجة الفتح الاسلامي».(34)

من خلال هذه الشهادات والعينات المقررة بحقيقة المساهمة العربية الاسلامية في الحضارة الانسانية عن طريق الاندلس، سنحاول تتبع اهم التجليات والعطاءات والابداعات التي باحت بها العبقريّة الاسلامية في ربوع جزيرة الاندلس والتي كانت بمثابة المحك الذي صيغت منه ابرز الاحداث العالمية من رحلات واكتشافات ساهمت في بلورة المنظومة الحضارية الكونية التي تنسب اليوم الى الغرب. فأي دور كان للنخبة العربية الاسلامية فيما سجله التاريخ من احداث هامة؟ وما هي مجالات العطاء والابداع التي اثرت بها النخبة مجالات المعرفة الانسانية؟

هذه المجالات كثيرة ومتعددة بل ومتشعبة ولا يمكن ايفاءها حقها في مثل هذا البحث المختزل وانما سنحاول تقديم اجزاء معينة منها من وجهة نظر معينة (أي من خلال آراء الغربيين) ونستقصي أهم مساهماتهم في ميادين :

- الدين
- السياسة
- الاجتماع
- الثقافة
- الاقتصاد
- العلوم
- الفنون
- الاداب

وليس المقصود هنا الالمام بما بلغه العرب المسلمون في الاندلس في هذه المجالات المعرفية، وانما سنصب اهتمامنا على طرافة هذه الموسوعة المعرفية التي ميزت عطاء المسلمين. كما سنبحث عن مدى توسع هذه المعارف

(34) DUFORCQ (CH. E): l'Espagne de la conquete arabe au siecle d'or in انظر revue historique PUF n. 534 Avril-Juin 1980.

ومساهمتها في اثراء الخبرة المعرفية الانسانية قديما وحديثا.

أ - الدين :

يقول : (ميكيل دي بالازا Miquel de Palaza) : «... ان اهم ميزة للتاريخ الاسلامي الاسباني تستوفي شروطها في الملحة الدينية، تلك الملحة التي جسمتها المواجهة الثلاثية : اليهودية والمسيحية والاسلام...» (35) هذه الملحة العقائدية التي خصها عديد الباحثين بالذكر فنوها بقيمتها واثنوا على مردودها نجدها قد استوفت شروط الادراك العميق لحقيقة الرسالة السماوية وبعدها الاخوي الاصلاحى بعيدا عن كل مظاهر العنصرية والجشع الصليبي الذي كبل بعض العقول فالتزمت به بعض الفئات ممن هادوا او تنصروا، الشيء الذي دفع بهم الى اضرار الحقد والتنكر للبعثات الدينية. لقد تشكلت خيوط هذه الملحة العقائدية منذ الفتح الاسلامي لجزيرة ايبيريا وتواصل هذا التشكل الى غاية زمن التهجير. لقد عرفت بلاد الاندلس طيلة هذه الحقبة التاريخية حلقات متعددة صبغت المنظومة الدينية بأشكال مختلفة تراوحت بين التقارب والتباعد وتمايزت بخصائص التسامح والحسن والضمور والخديعة. لقد كانت روح التسامح العلامة المميزة للاسلام والمسلمين، يقول التاميرا : «... اتبع الامراء المسلمون سياسة التسامح الديني منذ الفتح، وكان اشراف العرب يحترمون النصارى...» (36) اما الجالية اليهودية الموجودة بقرطبة خاصة، فانها كانت تمارس شعائرها في حرية تامة «... واستمرت مدرسة قرطبة للدراسات العبرية تمثل مركز الصدارة في اوائل القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس هجري) وتوسعت حتى أصبحت دارا للافتاء للشريعة اليهودية». (37) هذه العلاقات الدينية المبنية على الاخاء والتسامح امتدت اثارها لتصبغ العلاقات السياسية وتعطيها طابعا مثاليا، من ذلك نذكر علاقة الدولة الاسلامية بممالك النصارى التي تميزت بمعاهدات الصلح التي تصل في كثير من

(35) انظر: DUFOURCQ (CH. E): l'Espagne

(36) التاميرة - ALTAMIRA (R) : Historia de Espana y de la civilizacion Espanola Barcelona - 1900 Tome I pp. 229-231.

(37) دندش عصمت عبد اللطيف: الاندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان 1988، ط 1 ص 257

الاحيان الى تبادل الهدايا الفخمة من ذهب وحرير وخيل وجمال.(38)
لقد شكل الدين عاملا قويا ومؤثرا في بناء المجتمع واستقرار الحياة حيث
عمّ الرخاء والتسامح كل المدن الاندلسية التي فتحها المسلمون. ولعل ما
ذكرته بعض وثائق الصلح يقوم خير دليل على روح المحبة التي دخل بها
الاسلام بلاد ايبيريا حيث كان: «... لا غاية له الا نشر كلمة الله وهي اصل
الجهاد...»(39) من هذه الوثائق التي تصلح لان تقدم مادة دراسية غزيرة في
مقارنة معاهدات الصلح بين المسلمين والمسيحيين، نذكر وثيقة الصلح التي
عقدها عبد العزيز بن موسى مع تدمير بن غندريس في رجب سنة 94هـ
الموافق لشهر نيسان 713م والتي ورد فيها: «... اذا نزل على الصلح ان له
عهد الله وميثاقه وما بعث به انبياءه ورسله، وان له ذمة الله عز وجل وذمة
محمد صلى الله عليه وسلم، ألا يقدم له والا يؤخر لاحد من اصحابه بسوء،
وان لا يسبون وان لا يفرق بينهم وبين نسائهم واولادهم ولا يقتلون ولا
تحرق كنائسهم ولا يكرهون على دينهم وان صلحهم على سبع مدائن:
اريوالة (ORIHUELA) ومولة (MULA) ولورقة (LORCA) وبلنطة
(VALENTILLA) وألفنت (ALICANTE) وايوه (ELLO) والش (ELCHE)»(40).

ان سماحة الاسلام من خلال هذه الوثيقة تتمثل في حرص المعاهدة على
سلامة العقيدة واطمئنان النفوس واحترام دور العبادة وحقوق البشر. هذه
المثالية في المعاملات لم يحققها غير الاسلام. وما معاملات النصارى
للمسلمين بعد انتهاء عزهم في غرناطة الا اثبات لكل ذلك. لقد عاش
المسيحيون احرارا في تعاملهم مع قضايا دينهم وديناهم، كما بقيت كنائسهم
تستغل مواردها على أحسن وجه فعاش النصارى في ظل الاسلام وعز
المسلمين احرارا في عقد مجامعهم وتنظيم طقوسهم وتظاهراتهم الثقافية
واحياء شعائرهم الدينية، غير ان التاريخ سجل اختلاط مجموعات غير قليلة
منهم بالمسلمين فتقبلوا لغتهم وكثيرا من عاداتهم وتقاليدهم حتى كان فتح
المسلمين لشبه جزيرة الاندلس... فتحا انسانيًا وبداية عهد فريد لاسبانيا

(38) كوديرا فرانثيسكو: CODERA FRANCISCO : Decadencia - Zaragoza 1899 p: 124.

(39) راجع: DUFOURCQ (Ch. E). نفس المرجع

(40) هذه الوثيقة ورد ذكرها في عدة مراجع ومصادر

- أبو العباس الغزالي: نصوص عن الاندلس، تحقيق الاهواني. مدريد 1965

- أحمد بن عميرة الضبي: بغية الملتبس. القاهرة 1967

واروبا على السواء...»(41)

ان الظاهرة الدينية الاندلسية تعتبر من ابرز انجازات التجربة الاسلامية في الاندلس. هذه التجربة العقائدية خلفت نسيجاً اجتماعياً فريداً من نوعه نظر اليه اغلب الباحثين باهتمام متزايد وعلق عليه ليفي بروفنسال بقوله : «... لقد تميز الحكم في الاندلس بظاهرة التسامح حيال المعتقد والتعامل مع اهل الذمة. فكل اليهود والنصارى حافظوا على معتقداتهم الا من اعتنق الاسلام... ولم يبقى احد يعيش على الشرك...»(42) هذا التسامح الديني الذي ميز الحياة الاجتماعية في الاندلس كان بحق المحك الذي تم به اختبار القيم الاسلامية، وكل عقيدة تقاس بقيمتها وحرصها على احترام تلك المبادئ والقيم. فبعد ثمانية قرون من العطف والمحبة بين المسلمين وغيرهم من ارباب الديانات الاخرى تحولت الاوضاع، وبانقلاب الموازين اصبح المسلمون عرضة لنقمة الكائدين وهدف لعنصرية الحاقدين وصليبية المسيحيين : «لقد اصبح الاسلام تحت ضغوط المسيحيين، وهو مجبور على التراجع تحت ضربات المسيحيين وأمام المد الجديد، مجبوراً على التنازل على قسم هام من ابداعاته... وتلك هي الضريبة السياسية الايديولوجية الناتجة على كل ضعف اجتماعي أو سياسي...»(43) هذا التراجع الذي لحق المسلمين تسبب لهم في متاعب مؤلمة تعدت كل مظاهر التعسف والبطش ايام التفتيش. وقد ذكرت بعض الوثائق : «ان مفتش غرناطة سنة (1533) اقدم على حرق بعض الموريسكيين وأنه تلقى تهديداً من برباروس»(44) لقد تسامح المسلمون ايام عزهم وقوتهم، وتآمر المسيحيون وخانوا ايام بطشهم، غير انه بين تسامح المسلمين ومسالمتهم وعنجهية المسيحيين وتهافتهم كتب التاريخ أروع ملحمة للصراع البشري، صراع الحق والبقاء والفضيلة. لقد كان حواراً عقائدياً دنسته طموحات البشر، حوار علت فيه كلمة الاسلام وتهافت فيه شعارات المسيحيين الزائفة وغنم منه اليهود كعادتهم : «... ان محاكم التفتيش سوف لن تتدخل في شؤون الموريسكيين (اليهود) لانهم لم

(41) اندلسيات: المجموعة الثانية، بيروت لبنان 1969 ص 151

(42) ليفي بروفنسال: LEVI-PROVENCAL : Histoire de l'Espagne vol. III p : 458.

(43) ديدويجان DEDIEU (Jean-Pierre) : Morisques et vieux Chrétiens à Daimiel au XVI siecle in actes du symposium international du C.I.E.M. Publication I.S.D. Tunis 1984 p: 209

(44) وثيقة ارشيف مدريد (Archivo Historico nacional Madrid (Section d'inquisition) Legajo)

يقتلوا المسيح ولم يريقوا دماء القديسين» (45) ان الوثائق التي تحمل في طياتها الحقائق التاريخية وتقوم شاهدا على بعض الادانات كثيرة في مجال العقيدة وحرية العبادة. تلك الحرية التي تمسك بها ارباب الديانة المسيحية : «...ومما يجدر إضافته هو ان المسيحيين احتفظوا في عهد الخلفاء بكنيستهم المعروفة (في قرطبة) والتي كانت قبلة للحجيج ... كما كانت لهم دور عبادة اخرى...» (46) مقابل هذه الحرية والتعايش باللين واحترام العقيدة كانت تصرفات كل من شارل كان (CHARLES QUINT) سنة 1526م وما جد فيها من احداث، ومهاترات فيليب الثاني (PHILIPPE II) سنة 1566م منافية لكل النظم الحضارية معربة عن انتهائات مخزية للحريات العامة ولحقوق البشر. نعم ان روح التسامح التي ميزت العلاقة بين ارباب الديانات والعقائد كانت وراء ما تحقق في الاندلس من عظمة وسؤدد وفلاح حتى كان سجل الاندلس منظومة حضارية رائعة، ساهم فيها اليهود والنصارى والمسلمون عندما عانقت نفوسهم الابداع وتخلوا عن العنصرية. لقد حدث ذلك ايام عبد الرحمان بن الحكم (180هـ - 206/796 - 822م) في قرطبة مدينة الخير والسلام، تلك المدينة التي لم يعيش فيها المسلمون وحدهم بل كانت تشبه «...بيزنطة أكثر من اي بلد اسلامي اخر...» (47) كانت قرطبة شاهدا على اشياء كثيرة : «...لقد جاءت الزعازع في هذه الاونة من قبل عدد غير قليل من النصارى بقرطبة بالاندلس فلم يصابوا بشيء من هذه الغيرة العنيفة لانهم رأوا انهم يعاملون خير معاملة. وان المسلمين قد تركوهم احرارا فيما يعبدون كما ان الحكام لم يتدخلوا في شيء من عقائدهم. وأنهم يتجرون كما ارادوا ويجمعون الثروة حيثما وجدوها، وانهم يعيشون كما يعيش اخوانهم المسلمون...» (48) وبالفعل كانت الحياة الروحية الدافع الاول والمشجع على الابداع وتحقيق المعجزات، حتى كانت الاندلس معجزة القرون الوسطى، يوم تناغمت العقائد وتألفت الانفس من اجل الابداع الحضاري. «انه زمن ابو يوسف بن اسحاق ابن عزرا بن شبروط، وفيسانب (EL PRESBITERO VICENPE) وغيرهم من العلماء المسلمين الذين انتظموا في

(45) وثيقة ارشيف مدريد: Leg. 194/5 - F 20 R.

(46) فكتور بيكي: Victor PIQUET: L'Espagne des Maures Paris 1945 p. 12.

(47) فيكتور بيكي: نفس المرجع ص 8

(48) ستانلاي لام بول: STANLEY LANDES-POOLE : The moors in Spain p: 18

سمفونية الخلود الاندلسية.» (49)

ب - السياسة :

ان ما اصبحت عليه اوروبا من تنظيم سياسي في القرنين السادس عشر والسابع عشر بعد انتهاء الحكم الاسلامي واستعادة غرناطة يقوم خير دليل على ما غنمته من التنظيمات الاسلامية ذلك انه : «...منذ فجر القرن السادس عشر اصبحت اسبانيا البلد الوحيد القادر على تحقيق الفتوحات وتأسيس الادارة ونشر المسيحية وضم العالم الجديد الى اوروبا ... وهذا يعود الى ما غنمته اسبانيا من التنظيمات الاسلامية والمكاسب الحضارية التي مكنتها من اعادة بسط نفوذها على شبه الجزيرة الاندلسية.» (50)

لقد كانت الظاهرة السياسية التي عاشتها بلاد الاندلس طيلة الحكم الاسلامي نموذجا للعلاقات بين الدول على المستوى الخارجي وللتنظيم المحكم للادارة على المستوى الداخلي. فعلى مستوى العلاقات الخارجية حرص المسلمون في الاندلس على احترام المعاهدات والمواثيق الا ما نكث منها بتحريض «أو اثارة» (51) كما كانت السفارات ترسل في المناسبات او عند الضرورات. وكان شعار العلاقات يعتمد «عدم الاعتداء واحترام العهود والمواثيق والصدقات مع التعهد بالاكرام والمحافظة على الالتزامات» (52). هذه الخصال السياسية لم تكن معهودة عند دول اوروبا التي كانت علاقتها تقوم على الاعتداء والظلم. (53) لقد لازمت هذه الظاهرة السلوك الدولي الاسلامي طيلة بقاء المسلمين بالاندلس حتى دان لهم القريب والبعيد.

اما على مستوى التنظيم الداخلي فقد كانت الاندلس مثالا. وقد جاء في كتاب العبر لابن خلدون بيانا ضافيا للمكانة السياسية الهامة التي بلغتها الاندلس أيام الخلافة حيث يقول : «ومدت اليه (اي الخليفة الناصر لدين الله) أمم النصرانية من وراء الدروب يد الازعان، وأوفدوا عليهم رسلهم

FRANCISCO JAVIER SIMONET : Historia de los Mozarabes de Espana Mad- (49) rid 1903 pp. 713-725.

DEREK W. - LOMAX : The Reconquest of Spain - Londres New York 1978 p.(50) 191.

REINAUD (J-T) : Muslim colonies Lahore 1964 p. 114. انظر. (51)

عبد الرحمان علي الحجى: التاريخ الاندلسي، القاهرة 1983، ص 291 (52)

عبد الرحمان علي الحجى: 110. p. 110. Andalusian Diplomatic Relations - Beirut 1970 (53)

وهداياهم من رومة والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعن في مرضاته. ووصل الى سدته الملوك من اهل جزيرة الاندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة وبنبلونة وما ينسب اليها من الثغور الجوفية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزهم وامتطوا مركبه» (54). ويضيف المقرئ في (نفح الطيب) والحديث دائما على الناصر، انه «لم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والافرنجة والمجوس وسائر الامم الا وفدت عليه خاضعة راغبة وانصرفت عنه راضية» (55) هذه بعض النماذج من القوة السياسية التي بلغتها الحضارة الاسلامية في بلاد الاندلس والتي كانت مثالا للقوة والرخاء والاستقرار حيث عم النمو كافة المرافق وازدهرت الادارة في المدن وسنت النظم الحديثة مثل «امارة الثغور وامارة البحر» (56). واستقل القضاء لا عن الادارة والسلطة فحسب بل ايضا على قاضي الجماعة بقرطبة (57) الى جانب ما عرفه نظام الحسبة من تقنين وتفريع. كل هذه النظم الداخلية والخارجية كان لها ابعاد الاثر في اثناء طرق الحكم والتسيير التي عرفها العالم المتقدم في مطلع التاريخ الحديث «...ان التنظيمات التي ظهرت في قرطبة ذاع صيتها في اوروبا الغربية عند نهاية العصور الوسطى...» (58) وهذا الذبوع بقوم خير دليل على التلاقح الحضاري.

ج - الحياة الاجتماعية :

ونعني بذلك ما بلغته الحياة المدنية والعمرانية من تقدم وازدهار ذاع صيته وتناقلته كتب التاريخ الى يومنا هذا، ولا يختلف اثنان اليوم في القول بأن اسبانيا هي درة على جبين اوروبا، وهي قبلة الزوار والوافدين اليها من كل انحاء المعمورة. هذه الثروة الحضارية متأتية من مآثر المسلمين الخالدة - وسوف لن نعود لنتغنى بمدن الاندلس الرائعة مثل : قرطبة واشبيلية

(54) ابن خلدون عبد الرحمان: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) بيروت 1959 ج 6 ص 299

(55) المقرئ: نفح الطيب، تحقيق الدكتور احسان عباس، بيروت 1968 ج 1 ص 366

(56) عبد الرحمان علي الحجري: الحضارة الاسلامية في الاندلس. بيروت 1969 ص 26 - 27

(57) عبد الرحمان علي الحجري: القضاء ودراسته في الاندلس مجلة كلية الامام الاعظم بغداد 1972 العدد 1 ص 212

(58) انظر. LEVI - Provençal : Histoire de l'Espagne musulmane Tome III p. 514.

وغرناطة حتى لا يقال اننا نبكي ايامنا التليدة، ولكننا سنحاول قراءة هذا المجد من خلال شهادة الزمن الخالدة. ولعل اروع شهادة اتتنا على لسان شاعرة مسيحية تتحدث عن قرطبة حيث تقول : «...هي رونق العالم، لم تزهو بشبابها وتختال وتتهادى بقوتها وعظمتها، مشهورة بابداعاتها ومشعة بكل خيراتها...»(59)

هذا التحول العميق الذي عرفته الحياة الاجتماعية في الاندلس جاء نتيجة الوعي والشعور «بالمواطنة التي لا فرق فيها بين مختلف العناصر»(60) في هذا الجو الذي توفرت فيه كل اسباب الدعة والرفاهة، عاش اهل الاندلس حياة تتصارعها مغريات اللهو وجدية السعي نحو الافضل، وقد كثرت المآخذ على أهل الاندلس باعتبارهم مجتمعا منحلا اخلاقيا «مجتمعا لاهيا عما يحيط به من اخطار، لا هم له الا كأس يشربها او قينة يسمعها...»(61)

هكذا عاش أهل الاندلس بين الجد والهزل، بين حب العلم وحب الحياة. فكونوا نسيجا اجتماعيا خاصا تأثر به نصارى اروبا واخذوا عنه كل اشكاله الروحية وارتباطاته العائلية»(62) وحتى اشكاله المادية الخارجية مثل «الابنية والانماط المعمارية»(63)

د - الحياة الاقتصادية :

لقد عرفت بلاد الاندلس طيلة عهودها الاسلامية حياة اقتصادية متطورة اعتمدت اساسا على الانتاج وتبادل السلع والبضائع. وكان الاقتصاد يمثل عاملا من عوامل التقارب بين الاندلس وغيرها من البلاد الاسلامية وغير الاسلامية. هذا ما اثبتته كتب الاوصاف الجغرافية والرحلات.(64) وقد اختص اليهود والشاميون بميادين التجارة الداخلية والخارجية. هذا ما

PIQUET Victor : L'Espagne des Maures p: 9.(59)

HENRI Peres : La poésie Andalouse en Arabe classique p. 252.: بيريز(60)

ابن الخطيب: أعمال الاعلام، نشر ليفي بروفنسال بيروت 1956 ص 242 (61)

JOSE-ANGEL GARCIA DE CARTAZAR : Période médiévale in historia de Es-(62) pana Alfaguara, Madrid 1973 vol. XI p. 421

(63) ليوبولد توريس بالباس: الابنية الإسلامية الإسبانية ص 109

(64) مثال ذلك: كتاب المسالك والممالك لابن خردزبة، البلدان لليعقوبي، كذلك ما كتبه الاسطخرى وابن حوقل والمقدسي عن الاندلس. ياقوت الحموي والمؤرخ أحمد الرازي، أبو عبيد البكري، الادريسي والحميري.

سهل رواج البضاعة الاندلسية في الخارج وتواجد البضاعة المستوردة في ربوع الاندلس. «ففي عهدي عبد الرحمان الثاني وابنه هشام الاول ظهرت في قرطبة مظاهر حب البذخ والميل نحو ما غلا ثمنه من البضاعة تأسيا بما يحدث في بغداد وبيزنطة» (65)

وقد عرفت الفلاحة تطورا عجيبا زكته ظاهرة الاستصلاح الزراعي وكثرة الانتاج. كما بلغت الصناعة اوجها خاصا في عهد المرابطين حيث ظهرت الصناعات الزراعية والحيوانية، واستغلت المعادن الموجودة بكثرة في الاندلس في حركة التصنيع، واستفادت الفلاحة بدرجة أولى نظرا لمهارة أهل الاندلس في الصناعات الكيماوية المباشرة. (66) أو في تسخير الوسائل لخدمة الفلاحة مثل صناعة القصدير والرصاص التي استفادت منها عملية نقل المياه. (67) ان ازدهار الحياة الاقتصادية كان وليد جو الاطمئنان الذي عرفه اهل الاندلس عموما «الشيء الذي اشاع بين الناس لونا من الرفاهية والرخاء لم تعهده اربوا» (68)

هـ - الحياة العلمية :

يبدو ان الجانب العلمي كان من ابرز الظواهر التي ميزت نقل التراث المعرفي العربي الاسلامي الى اسبانية المسيحية ومنه الى اربوا عامة ولا أدل على ذلك مما قام به (رون الفونسو) الملقب بالعالم الذي عرف النقل في عهده ذروته والذي لم يهمل اي فرع من فرع العلم والمعرفة الاسلامية. هذا الجانب الحي من المثقفة Acculturation لم يحصل الا عندما كان العرب أقوياء بعلومهم ومعارفهم. وبالتالي كانوا من المؤسسين للملحمة المعرفية التي تعيشها حضارتنا اليوم. وكثيرون هم الذين ينكرون على المسلمين دورهم في هذا المجال غير ان الحقائق والشواهد التاريخية تفند اقوالهم وتسفه احلامهم العنصرية. تذكر جنثالت بالنشيا صاحبة كتاب (تاريخ الفكر الاندلسي) «ان - دون الفنسو - حرص على ترجمة اهم الكتب في علم الفلك لما وجد فيها من فوائد ومنافع» (69) هذه الفوائد ترجمتها العلوم

(65) انظر الموسوعة الاسلامية TORRES BALBAS (L) : Al Andalus in Ency de l'islam Nouvelle éd. 1975 Tome I p. 515.

(66) ارشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد عيسى القاهرة 1960 ص 260

(67) ليفي بروفنسال: المدن والنظم المدنية في الغرب الاسلامي ص 90

(68) دوزي: DOZY (R) : Histoire des musulmans d'Espagne vol. IV p. 258

(69) يالنتيا جنثالت: تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة 1955 الطبعة 1 ص 575-576

والفنون المعرفية التي برع فيها المسلمون واخذها عنهم المسيحيون فيما بعد واكتسبوا بها شأنا عظيما فذاع صيتهم وعلت كلمتهم. فما اكثر الذين استفادوا من علوم العرب وقد خلدتهم كتب التراث المعرفي الاربوي دون ادنى اشارة الى اصل معارفهم. من بين هؤلاء نذكر على سبيل المثال : Ger-beert (70) (930 - 1003) الذي اشاع علوم الرياضيات في فرنسا والمانيا وايطاليا وهو الذي «ادخل الارقام العربية الى اوروبا واستفاد من بعض المعدلات في علم الجبر... وقد طلب هذه المعارف من العرب في قرطبة واشبيلية» (71) كذلك الشأن بالنسبة للطب الذي برع فيه ابو القاسم الزهراوي (AL BUCASIS) الذي يقول عنه العالم الايطالي (FABRIZIO D'ACQUAPENDENTE) : «... Celse عند اللاتينيين Paul Eginete عند الافريقاء bucasis (ابو القاسم الزهراوي صاحب كتاب التصريف) عند العرب. هذا الثلاثي اعترف له بكل فضل واحترام...» (72)

أما جملة العلوم والمعارف التي ذاعت في ربوع الاندلس وترك اصحابها انتاجا ضخما فهي : (الحديث، الفقه، القرآن، أصول الفقه، التفسير، الرأي، الادب، الشعر، اللغة، التاريخ، العلوم الطبيعية، العلوم التجريبية الصحيحة، الكلام الزهد، التصوف والفلسفة) (73). حدث ذلك أيام العطاء بالاندلس، حيث كان العالم والسلطان صنوان لا يفترقان، وكان الامراء لا ينضب تشجيعهم للعلم والعلماء. لقد أشار ابو الوليد الشقندي (629هـ) عندما تحدث عن الاندلس وفضل اهلها في مجالات العلم والمعرفة ذاكرة ملوك الطوائف : «ولما ثار بعد انتشار هذا النظام ملوك الطوائف وتفرقوا في البلاد. كان في تفرقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد اذ نفقوا سوق العلم، وتباروا في المثوبة على المنثور والمنظوم فما كان أعظم مباهااتهم الا قول : العالم الفلاني عند الملك الفلاني. والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني. وليس منهم الا من بذل وسعه في المكارم ونبهت الامداح من مآثره ما ليس طول الدهر بنائم.» (74)

70 هو Gerbert d'Aurillac المعروف باسم SYLVESTRE II

71 انظر: VIARDOT Louis : Histoire des Arabes et des Maures d'Espagnes vol. : II 172.

72 نفس المرجع: ص 173 VIARDOT Louis

73 URVOY DOMINIQUE : Le monde des Ulemes Andalous du V/XI au VII/XIII siecle (73) Geneve 1978 pp. 141-142

74 المقرئ: نفح الطيب ج 1 ص 440

ولم يكن ملوك الطوائف وحدهم الذين شجعوا العلماء وازدهرت في عهدهم العلوم بل حدث ذلك ايضا في عهد الامارة والخلافة. كما كانت : « كل مدن الاندلس تزدهوا بعلمائها وحركاتها الادبية الى جانب النهضة الاقتصادية والاجتماعية. » (75)

وفي مجال العلوم يكفي الاستدلال ببعض الرموز المعرفية الذين انجبتهم الاندلس وشهد الغرب على نباهتهم وبراعتهم في ميادين علمية عديدة، ونذكر خاصة :

— أبو القاسم مسلمة بن احمد المجريطي (ت 1007م) كتب عن الاسطرلاب واصلاح الجداول الفلكية للخوارزمي.

— أبو القاسم بن السمع (ت 1035م) اشتهر في ميدان علوم الرياضيات — ابو الحسن الشيباني الكاتب المغربي : اشتهر بعلم الفلك وعرف عند اللاتينين باسم ALBENRAGEL (ت 1040م).

— أبو القاسم بن عمر الغافقي : (ت 1035م) من اشهر علماء الفلك والرياضيات وقد ترجمت كتاباته الى اللاتينية والعبرية.

— أبو القاسم الزهراوي الذي طبقت شهرته الافق (ت 1013م) وهو اكبر جراح عربي معروف عند اللاتينين الذين ترجموا له موسوعته الطبية وهو صاحب كتاب (التصريف لمن عجز عن التعريف).

— أبو ابراهيم بن يحيى النقاش (ت 1087م) الذي صنع معدات فلكية وجمع اعمال المجمع الفلكي بطليطلة. وقد ترجمت اعماله الى اللاتينية والعبرية هذه بعض العينات وستكون لنا اضافات اخرى عندما نتناول بالبحث ما غنمته اروبا من العلوم العربية.

وعلى العموم فقد تميزت التجربة الأندلسية بالجودة والتجويد، والاحكام في التأليف، ووفرة الانتاج في العلوم النقلية والعلوم العقلية، وقد بلغت هذه الاخيرة ذروتها في مجالات الطب والنبات والعقاقير والفلك والحساب، وعلى اثارهم سار من خلفهم ولم يخلفهم الا الاروبيون. و — الابداع الفني :

اردت ان اخص بالذكر في هذا الجانب : الموسيقى والعمارة والادب وهي بحق الجوانب التي تفتقت فيها عبقرية وقريحة المسلمين في الاندلس وبالتالي

(75) انظر: KHALIS SALAH : La vie littéraire à Séville au XIe siècle SNED Alger 1966 p. 238.

ساهمت في تنمية التراث الاسلامي خصوصا والتراث الانساني بصورة عامة. وهذا ما جنته اوروبا على وجه الخصوص.

- الموسيقى : المدرسة الموسيقية الام التي غدت التراث الفني البشري هي المدرسة اليونانية. ولا شك ان العرب كانوا في هذه المجال اسبق من اوروبا في الكشف على النظريات الموسيقية اليونانية واستيعابها واثرائها بمعطيات شرقية. وبالتالي فان الموسيقى في الاندلس كانت اقدر على توجيه المجال الفني على تخوم اوروبا والاستفادة من الانتاج اليوناني القديم والغريغوري الوسيط، لذا كان تأثيرها بين في الشكل والمضمون الى يومنا هذا من خلال الايقاع والبناء الموسيقي، وهذا التأثير متأني من اصالة الموسيقى العربية عندما تقارنها بالموسيقى الاربوية. ويكفي للإستدلال على ذلك بقولة الباحث الفرنسي بيري فيلين : «ان السماع الواعي للموسيقى الاربوية يكاد يوحي بأن الايقاع فيها لا يخضع بالمرّة لاية قاعدة معينة... أما الموسيقى العربية فالايقاع فيها يشكل عنصرا اصيلا ان لم نقل ظاهرة اصيلة تتجلى في سائر الاصناف الموسيقية للشعوب الاسلامية، وتشكل عنصرا اساسيا في تحديد مفاهيمها الفنية والحمالية. » (76) هذه البراعة في الموسيقى تعود الى براعة المسلمين في الرياضيات خاصة للحساب، يقول فانسان داندي : «يلعب الايقاع دورا اساسيا في تحديد البنية الشكلية للحن الموسيقي... وهو يعتبر مقياسا عدديا لتقدير ازمنة الالحن ... تربطه علاقة وطيدة بعلم الارتماطريقي (الحساب) » (77) هذه بعض القيمة للموسيقى الاندلسية ولا يمكن التعمق اكثر لعدم اتساع المجال. كذلك الشأن بالنسبة للالات الموسيقية (مثل آلة العود والقيتارة) ورسم سلم الموسيقي. هذه شواهد عن عالمية الموسيقى العربية الاسلامية : «... من هنا وهناك استمعت من افواههم الى عينات حية من الموسيقى العربية» (78) هذا ما قاله لويس فياردو (VIARDO Louis) في حديثه عن الموسيقى من الأندلس الى الاتحاد السوفياتي.

- الادب : ان تأثير مسلمي الاندلس في الادب الاربوي لا يستهان به. وقد

76 انظر : FELINE PIERRE : La revue musicale n. 195, 21e année 1940

من ص 36 الى ص 42 الرباط.

77 انظر D'INDY VINCENT : L'Art de la musique éd. SEGHERS 1980 p. 390

78 انظر : VIARDO Louis : Histoire des Arabes vol. II p. 184.

جاء هذا النقل الفني للأسلوب والمحتوى من مخالطة المسيحيين للمسلمين وحركة النقل من اللاتينية الى العربية.

ففي مجال الشعر نجد ترنيمة القافية التي هي من اصل عربي قد غزت اروبا. هذه القافية ظهرت في الاشعار الدينية والموشحات الغنائية التي منها الزجل. ففي نهاية القرن الحادي عشر الميلادي ظهر في جنوب غربي فرنسا اول نوع من الشعر الوجداني بلغة (بروفنس) اولى عاميات اللاتينية وذلك في قصائد قليلة تعزى الى (وليم التاسع) امير بواتييه. هذه المنطقة كانت كثيرة الاتصال بالممالك الاسلامية في الاندلس. وتشير الدراسات الاربوية الى ان هذه الشعر الوجداني المبكر يشبه الى حد كبير انماط الموشح والزجل الاندلسية التي سبقته بقرنين من الزمن وذلك من حيث ظهور القافية التي لم يعدها موروث الشعر الاغريقي واللاتيني: «...نرى ان الشعر (البروفانس كثير الشبه بالشعر العربي من حيث الشكل والمضمون...» (79) وهذا يعود الى كثرة اقبال المسيحيين على الادب العربي، وما شكوى مطران قرطبة في اواسط القرن التاسع من اقبال المسيحيين الاسبان على الشعر العربي والثقافة الاسلامية الا دليل على تأثر هؤلاء القوم بالنفحات الادبية الاندلسية.

ان اثر الادب الاسلامي لم ينحصر فقط في فرنسا وانما تعداها لينال منه الانقليز والامان والايطاليون(80) ولعل ايطاليا بانفتاحها على صقلية التي تعدّ البوابة الثانية لعبور المعارف الاسلامية الى اروبا، قد سجلت تأثر العديد من كتابها وادبائها بالموروث الادبي العربي الاسلامي.

- فن العمارة :

يكاد يكون فن العمارة المشرقي الاسلامي الذي استوطن الاندلس وذاع صيته في الغرب، أهم مميز للمؤثرات الجمالية التي جنتها اروبا. والعمارة بقدر ما كانت تجسيما لدرجة النضج والبلوغ الذي عرفه المجتمع العربي الاسلامي، كانت محط انظار الجماعة المسيحية التي استهواها نمط الحياة الاسلامية بكل مظاهره، فراحت تقتبس كل ما من شأنه ان يقيم تركيبا

(79) نفس المرجع ج 2 ص 190

(80) هناك دراسة نادرة اعتمدت عليها اغلب البحوث الخاصة بالادب الاندلسي تتعرض لتأثيرات الادب العربي في الادب الغربي DON THOMAS SANCHEZ : Poesias anteriores al العربي Siglo XV

عضويا يترجم بصدق عن رغبة الاخذ والتأثر.

واذا اردنا تتبع الطابع الاسلامي الدخيل على العمارة الاربوية في مختلف انحاء المدن فانه يطول بنا البحث، ولكن يكفينا الوقوف على حقائق وابعاد ما يعرف في فن العمارة الاربوية بابداعات عصر النهضة، والى غاية الوقوف على هذه التأثيرات في بعض المعالم القائمة حاليا (مثل معلم نوتردام) (81). ومن خلال هذا التأثير ندرك ان روعة العمران الذي عرفته قرطبة والحمراء وغرناطة واشبيلية وغيرها من البلدان الاندلسية جسم حقيقة التشابه الذي فرض على فن العمارة المسيحية. ولا يمكن ان تكون العمارة شاذة ذلك ان المثاقفة تكون سارية في كل الميادين والمجالات، كما ان تأثر الغرب بالحضارة الاسلامية كان عاما وشاملا. وما كل ذلك الا مساهمة في اثراء الحضارة الانسانية.

7 - عالمية هذه التجربة :

ان اروع تعبير يمكن اعتماده في هذا الباب هو الطرح الذي تقدم به جورج سارطون في كتابه (تاريخ العلم والانسانية الجديدة) هذه الانسية Humanisme التي تأخذ بعين الاعتبار جهود كل البشر ومساهماتهم في اثراء الحضارة الانسانية فالحضارة هي للانسان وليست لشعب من الشعوب. وانما كل افراد البشر بمثابة الاطراف التي تساهم في صيرورتها بالقدر الموعود وبذلك يصبح العلم والانسانية صنوان لا يفرقان . «ان العلم هو ضمير الانسانية» (82) هذه الانسية هي العالمية التي عبر عنها (OPPENHEIMER) في قوله : «ان انفساح اطراف هذه الدنيا انما ينهل» ييزته من ثبات المعرفة وعدم قابليتها للزوال. وما يعرف ويدرك يصبح من الانسان. لذا ما كان لنا ان نغمض اعيننا عن ابداعات الاخرين او نصم اذاننا حتى لا نستمتع الى ام اخرى غريبة عنا» (83)

ان الانسية التي لازمت فكر (سارطون) انصفت كل الحضارات وزكت ابداعاتها وافاضت على فضائلها ولا غرو ان تكون هذه الانسية الوعاء الذي

(81) انظر ما يتعلق بمعلم (Notre Dames de Paris) في كتاب: DULAURE : Histoire de Paris Tome II p 225

(82) سارطون جورج: - The history of Science and the new Humanism (G.) : SARTON Third éd. New York 1956 مقدمة الكتاب

(83) انظر. OPPEN HEIMER (J.R.) : Prospects in the arts Columbia 1955.

تصبح فيه البشرية أمة واحدة بفضل العلم. وهكذا تتفرع المعرفة لتنصب في الانسان وتنمو رغم بعد الشقة : «انها ازدهرت في اجزاء محدودة متفرقة من العالم : مرة في مصر، واخرى في بابل، ثم في افريقيا والصين واليابان، ثم في فارس والاندلس وفرنسا والمانيا وانجلترا وامريكا» (84)

ونحن من خلال هذه الانسية سنرسم جدلية القصة الحقيقية للعلم بعيد عن تضليل البحوث الحديثة التي تقف بالعلم عند القرن السابع عشر. هناك ثوابت ومتغيرات. واذا كان الفكر البشري من الثوابت فان التطور التاريخي قد لازمه في كل احواله وتقلباته. ودراسة هذه الظاهرة التطورية لا تستوي بالقفز على الاحداث وانما يجب ان تخضع الى بناء جدي متكامل. واذا امكننا بهذا الطرح فان التجربة الاندلسية ستكون بمثابة احدى المحطات المعرفية في إطار المحصلة الاسلامية لتكون حلقة وصل بين الشرق والغرب، حلقة اثرى وازدادت، تناغمت فيها عناصر القديم والحديث لتشكل واجهة من شأنها ان تكون بمثابة القاعدة التي اعتمدها الآخرون. فلا مكان للمنكرين ولا رأي للحاقدين الذي يوارون فضل هذا المد الابداعي المعرفي السابق. وفي منطق العقلاء لا تستقيم صورة الحاضر الا بالماضي ولا ينبغي المستقبل الا بهما معا.

كثيرون هم الذين ينكرون على الامة العربية الاسلامية مجدها المعرفي ومساهماتها في صياغة المنظومة العلمية الانسانية، بالاعتصار على القول بأنهم كانوا مجرد نقلة، وحتى النقلة كانوا في معظمهم من غير الجنس العربي. وهذا افتراء يدحضه جورج سارطون في قوله : «يحاول نفر من المؤرخين ان يبخسوا قدر هذا الانتاج العظيم بادعائهم انه لم يكن فيه ابتكار ما وبأن العرب لم يكونوا سوى مقلدين، ان هذا الحكم ينكشف عن خطأ فادح...» (85)

هذا الجحود والانكار سلط على كل التراث العربي الاسلامي. اما ما قيل عن التجربة الاندلسية ومكانتها على مستوى التاريخ الاندلسي، وهذا هام جدا. فانه يمكن الاشارة اليه من خلال الحوار الساخن الذي تمحور حول كيفية تعامل الغرب مع التجربة الاندلسية، وما دار بين الباحثين كاسترو

84) سارطون جورج: نفس المرجع. المقدمة

85) سارطون جورج: الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط. نقل الدكتور عمر فروخ منشورات مكتبة المعارف، بيروت لبنان ط 1 ص 51

الذي يرى ان تاريخ الاندلس هو جزء لا يتجزأ من التاريخ الاسباني عكس سانشيس الذي يقر بأن التاريخ الاندلسي قد شكل انكسارا في سير التاريخ الاسباني.

هذه الجدلية كافية للتدليل على عمق شعور الانتساب حتى عند الرافضين وان كان لا شعوريا. وهو احساس مازال يلزم البعض الى يومنا هذا. لكن حدته قلت وهو امر يبشر بكل خير.

8 - ماذا جنى الغرب؟

لا يمكن تحديد الاستفادة التي جناها الغرب من اطلاعه على التراث الاسلامي الا بالقاء الضوء على حركة الترجمة التي ازدهرت في الاندلس ما بين القرن XI والقرن XIII وتتبع اعمال الناقلين للمعارف الاسلامية. في هذا الباب يمكن اعتبار الاندلس رائدة في مجال نقل العلوم الاسلامية الى العالم الغربي المسيحي حيث كان هذا النقل «كثيفا وامينا وعلى امتداد فترات طويلة فاقت غيرها في الاماكن الأخرى».(86)

واذا عرفنا ان الناقلين للمعارف الاسلامية اشتهروا بمكانتهم العلمية يمكن الاقرار بجدوى الفائدة التي جنتها اوروبا وبنت عليها تقدمها العلمي المعاصر وابداع ثقافتها. في هذا الصدد تكفي الإشارة الى بعض الناقلين ومحتويات نقولهم من ذلك نذكر مثلا :

1 - المجموعة الاولى : النصف الاول من القرن XI من بين اصلي اسبانيا نذكر :

Loannes Hispalensis الذي يعرف باسم Juan de Sevilla وهو يهودي اعتنق المسيحية وتولى نقل العلوم من العربية الى القشتالية.

- Dominicus Gundisavus وهو الذي تولى الترجمة من القشتالية الى اللاتينية.(87)

2 - المجموعة الثانية الاجانب الذين اقاموا باسبانيا نذكر من بينهم :

- Platone di Tivoli

- Gherardo di Cremona ايطاليا من القرن XII

(86) راجع MIELI ALDO : La Science Arabe et son role dans l'évolution scientifique mondiale Paris 1966 p. 231

(87) نفس المرجع ص 232

الاثنان لهما عمل متكامل في الترجمة غير أن دي كريمونا اشتهر بجمعه
لأعلام العلم والمعرفة من اللاتينيين والمسلمين. (88)

3 - المجموعة الثالثة : القرن XIII

Libros del Saber de Alfonso El Sabio الذي تنسب اليه المجموعة الكبرى -
(89) Astronomia

ان امثال هؤلاء الناقلين للمعارف العربية الاسلامية الى الفكر الغربي
نجدهم قد قدموا خدمات هامة وازافات ذات قيمة من شأنها ان تغذي
النمط المعرفي الاروبي وتطوره.

ومهما طالت قائمة هؤلاء النقلة فلا يمكن ان نغض الطرف عن الذين
نقلوا واجتهدوا وازافوا فكان لهم الفضل في تحقيق علوم ومعارف جديدة
من بين هؤلاء نذكر :

- (LEONARDO PISANO) (ولد سنة 1170 وتوفي سنة 1240م) هذا
العالم يمثل في نفس الوقت نقطة الالتقاء والاختلاف بين العلوم القديمة
والمعارف الحديثة (90)

- (ARNALDUS VILLANOVANUS) ولد سنة 1234 وتوفي سنة 1311
سافر الى اسبانيا وايطاليا وفرنسا.

- (RAMON LULL) ولد سنة 1235 وتوفي سنة 1315. عاش طوال
حياته مغرما بالعلوم الاسلامية رغم انه كان ضد العقيدة الاسلامية. (91) ان
ما نقله هؤلاء العلماء الى اللاتينية او الى العبرية من شأنه ان يكون قاعدة
أساسية بنيت عليها العلوم الحديثة واقيم على صرحها المجد الثقافي الذي
يعرفه الغرب اليوم. وهذا قليل من كثير فلا مجال للجحود والانكار. كما ان
الذي تلعبه (الأكاديمية العالمية للتاريخ والعلوم) تحفظ اليوم احسن اثار
الحكماء العرب وهي منذ نشأتها نجدها قد اهتمت بالانتاج العلمي العربي.
وما تواجد النخبة من المستشرقين ضمن اعضائها الا دليل على ما لهذا الاثر

(88) يشير جورج سارطون الى أنه ترجم أكثر من (87) كتابا عربيا في مختلف العلوم نفس

(89) ظهرت هذه المجموعة في مدريد سنة 1863 - 1867

(90) BORTOLOTTI (E) : LE FONTI ARABE DI LEONARDO PISANO BOLOGNA 1929 P: 91-92.

(91) OTTO KEICHER : Lullus und seine Stellung Zur Arabischen Philosophie: انظر: Munster 1909.

الانساني من مكانة هامة. ومن ابرز هؤلاء نذكر (جورج سارطون، ويوليان ريبيريا، يوليوس ريسكا، ماكس مايرهوف، ميكال آنسيس بالاثيوس... (93) ومع ذكر الاشخاص لا ننسى ذكر اهم عمل قدمته هذه الاكاديمية في جمعها للتراث ضمن موسوعة (CORPUS Scriptorum Arabicorum de Scientia Natutali (et arti Medica

9 - ماذا جنى المسلمون :

يبدو ان المسلمين لم يستوعبوا درس انتهاء تجربتهم بالاندلس فراح اغلبهم يقيم المآثم ويعلن الحداد معتبرا ان الوجود أوشك على نهايته، وان التاريخ قد اغلق سجله. ان انتهاء هذه التجربة رغم ما فيه من حدة وقسوة لا بد ان يعالج بموضوعية ويفحص بعمق لمعرفة نقاط القوة ونقاط الضعف حتى يكون للتاريخ درس وفوائد. صحيح لقد اصاب الحضارة العربية الاسلامية شيء من الافول غداة انتهاء التجربة الاندلسية لكنها لم تمت لان الحضارة لا تموت وهذا ما يجب ان نعيه وما وعيناه طيلة خمسة قرون سامنا فيها الغرب اسوأ المعاملات.

نحن اليوم على اعتاب قرن جديد وعصر جديد، كما اننا نجد انفسنا مطالبين بتعويض ما فاتنا. لذا فنحن اليوم في حاجة ماسة الى قراءة متجددة لهذه الفترة التاريخية الحافلة بالامجاد والعظمة لاستخلاص ما يهمنا في حياتنا الحالية والإعتبار بما مضى وولى.

ان تجربتنا مدعاة لكل فخر واعتزاز فلا مجال لوءدها ومجارة الغرب في نظرته اليها. هذا هو الجانب النظري للقضية، اما الجانب التطبيقي فهو حافل بالمساهمات في مختلف مجالات المعرفة والتراث شاهد على ذلك. ويكفي الاندلس فخرا انها انجبت رجالا أفذاذا في مختلف بحور العلم والمعرفة من علوم وادب وفنون وفكر، فمن منا لا يذكر ابن الخطيب والمقري وابن رشد وابن طفيل وابن زيدون... كل هؤلاء لهم ابداعات لا تحد، وانتاج لا يحصى، وتأثير بعيد في الذاكرة الجماعية للامة العربية الاسلامية، وكتب التاريخ والادب والفنون شاهدة على ذلك.

ما بعد التجربة الاندلسية :

1 - نهاية التجربة وحدة المؤسسة :

إن ما تحقق للمسلمين من مجد حضاري في ربوع الاندلس وما عرفوه

ففيها من نخوة العز وقوة العظمة حري بنا ان نقف بكل اعتزاز منوهين بتلك الجهود الجبارة ومباركين للمكاسب الحضارية التي تحققت على ايديهم. هذه القمة في العطاء لا يجب أن تتأثر بما حاق بالمسلمين في اواخر ايامهم من مذلة وهوان وتلك هي احدى النهايات التي يجب ان تعيشها أمة حضارة.

ان ما عرفه المسلمون من مآسي توازي غزارة عطائهم وكأن منطق العقاب جاء ليتلف الآثار الايجابية، وليوقف المد الذي لا ينضب لاهل الاسلام والمسلمين. صحيح ان نهاية التجربة كانت مأساوية ولكن تلك هي حتمية التاريخ وضرب من ضروب التعامل. هذه المآسي بقدر ما اكسبت المسلمين عزا فانها البست الحاقدين ثوب العار والفضائح. وأي فضائح اعظم مما اقدمت عليه محاكم التفتيش، وأي خيانة اقذر من تلك العهود التي اعطيت للمسلمين من قبل الهيآت العليا في السلطة ثم نكثت وكشر اصحابها «عن انياب العنصرية والصليبية» (92) ان زمن التهجير الذي عرفه المسلمون من سنة 1492 الى سنة 1609م وما صحبه من ممارسات تعسفية (93) لن يستطيع تلطيخ الصفحات الوردية الزاهية التي نمقتها العبقريّة المسلمة وسجل التاريخ بحروف من ذهب فضائلها، لكي تبقى عالقة بالفكر البشري الى يوم الناس.

واذا كنت قد خصصت الجانب الاول من بحثي لتتبع اثار العبقريّة المسلمة في الاندلس وحاولت قراءة تجلياتها واثارها على مسرح الاحداث العالمية، وتعاملت معها بكل اعتزاز وفخر، فلا أريد ان يكون القسم الثاني من البحث عاملا يحجب عن القارئ مزايا الحضارة الاسلامية. وهذا القسم يمثل جانب السقوط والمعاناة.

2 - غرناطة وبعد :

تعتبر سنة 1492م سنة تحول كبرى وحاسمة على مستوى تاريخ البشرية جمعاء نظرا لخطورة الاحداث التي عرفتها. ولا غروا ان نقول ان هذه التاريخ كان اخطر حلقة وصل بين المعهدين الوسيط والحديث. ففي

(92) رودريغو دي زياس: الموريسكيون وعنصرية الدولة. نشر دار لاديفيرانس، باريس 1992 المرجع ص 236

(93) نفس المرجع يضع في الميزان ص 18 عنصرية الدولة

هذه السنة توجت الرحلات الكبرى باكتشاف القارة الامريكية، ودخلت الانسانية طور الثورة العلمية التي انتجت ثقافة الحضارة التي نعيشها اليوم، وفيها ايضا، وهذا الذي يهمننا ويشد انتباهنا، «عرف العالم الاسلامي بداية تحوله المأساوي وسقوطه في عصور الانحطاط والتبعية والتخلف» (94) ذلك انه بسقوط غرناطة نزل الستار على ملحمة حضارية من ابرز الملاحم التي خبرها التاريخ. فلف العالم العربي الاسلامي ضباب النسيان، وادار الزمن وجهه، فترهلت الشعوب العربية عن المبادرة واقعدها العجز ومكثت تراقب الاحداث وكأنها تعيش خارج الزمن. ولم يبق فيها الا وعيها التاريخي وذاكرتها الجماعية التي لم تهمل شاردة ولا واردة الا ووضفتها لاثراء منظومتها التراثية المأساوية. حدث ذلك في 2 يناير سنة 1492م عندما سقطت غرناطة، واحتلت الحمراء وانتهت قصة الاندلس... الفردوس المفقود. عندما سقطت غرناطة آخر معاقل الاسلام والمسلمين في الاندلس، وتلتها عمليات النهب والسلب والطرود التعسفي، عرفت شريحة من المجتمع العربي الاسلامي من سكان الأندلس (الموريسكيون) أفضع مأساة إنسانية عرفها التاريخ البشري على الإطلاق. هذه المأساة صنعت من الموريسكين شعبا مجاهدا لا يموت ابدا، كما حولت الاندلس الى «كتاب مجد خالد، يقرأه من هو جدير بالمجد الخالد، ويستشعر الحياة فيه من يشعر بأنه ينتسب الى شعب لا يموت.» (95)

هذه المأساة احتضنها اللاوعي الجماعي وسجلها الوعي التاريخي العربي الاسلامي ليصوغها في جدلية تاريخية محملة بكل هموم الامة العربية الاسلامية ناطقة بكل مرارة وحزن، ومغارقة في الرثاء والبكاء والحنين حتى انك لا تجد مؤلفا في مجال التاريخ او كاتبا في علم الاجتماع والانثروبولوجيا الثقافة والدراسات الفنية والادبية والفقهية التي تتعرض للتجربة الاندلسية، او ندوات ودراسات تتناول اشكالية النهضة والسقوط في المجتمع العربي الاسلامي، أو ازدهار وانحطاط الحضارة العربية الاسلامية الا وتجعل من مأساة غرناطة (96) وانطفاء آخر شعلة لحضارة

94) أكثر الجمل ترددا عند المؤرخين للخلافة الإسلامية في الاندلس.

95) مؤنس حسين: رحلة الاندلس، حديث الفردوس الموعود الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ط 1 1963 ص 8

96) انظر غالي شكري: النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث دار الطليعة بيروت 1978 ص 14

الاسلام بالاندلس بداية السقوط والضياع في متاهات الجهل والتأثر والتخلف والانحطاط.(97) ولعل الازمة الحادة التي يتخبط فيها المجتمع العربي الاسلامي والمركبات التي يعج بها وعيه من ذلك التاريخ الى يومنا هذا، اي طيلة خمسة قرون، امتازت لها بناء الثقافة والمعرفة والسلوكية وتصدعت تركيبته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. كل هذه التعبيرات والردود تعتبر خير دليل على حدة المعاناة التي ارقق عبؤها كاهل الذات العربية. فلا هي تقدمت ولا حافظت على موقعها، بل تقهقرت فازدادت الهوة الفاصلة بين العالم العربي الاسلامي والغرب عمقا والبعد الحضاري اتساعا. واذا كان من دروس التاريخ ان نعتبر بالماضي، فما علينا الا ان نستفيد من هذه التجربة وان نقيم الحجة والبرهان على حسن استعدادنا لانصاف هذه الحضارة التي يدين لها الغرب بنصيب وافر من تقدمه مثلما بينا ذلك سابقا. ولا أريد ان يكون المقام للرثاء، واقامة المناحة، لكن علينا ان نطهر وعينا ونخلص ذواتنا من تبعية هذا السقوط حتى لا نكون امثال سيزيف او الشطاحين في محراب الخطيئة الطالبين للخلاص والغفران. اذا اردنا ان نخلص وعينا من هذه الازمة المزمنة يجب علينا ان نسلط منهجية جينالوجية او تحليليا نفسيا لتاريخنا حتى نكشف عورات ذواتنا ونخلص انفسنا من حدة الصراع القائم بين ما نعيه كواقع تاريخي وبين ما فرض علينا من تراكمات ضبابية حجبت عنا النظر الى الواقع واغرقتنا في التصورات والالوهام والمبالغات التي قلبت الواقع اسطورة تستحق التعرية الاركيولوجية التي تتجلى من خلالها الشخصية التاريخية بمعزل عن لوثة الشخصية الاسطورية التي برعت في صياغتها الكتابات العاطفية المغرقة في التمجيد والتبجيل، والمشدودة الى الوراء بفعل الروحانيات والخيالات التي ملأت رؤوس العرب المسلمين (ذلك هو المتخيل L'Imaginaire). ولا يمكن فصل هذه المأساة عن غيرها من المآسي التي اقضت مضجع المجتمع العربي الاسلامي، وهي كثيرة. ولكن لاعتبارات عديدة ستكون هذه المأساة مركزية وسينصب بحثنا وتحليلنا على تبعة ما افرزته من سلبيات لازمت الذات وكبلت المجتمع واقعدته.

(97) شرابي هشام: العرب والغرب، بيروت 1978 ص 21

3 - مشكلية المأساة :

وهي البحث عن اللحظة التي انعقدت فيها عقدة الحياة والتاريخ، وشخصت امام اعين التاريخ مأساة الحدث. لكن لماذا هذه المأساة بالذات؟ والحال ان دفاتر الايام حبلى بالمآسي. انها المأساة التي شلت العزائم واقعدت الارادات.

المعروف في التاريخ ان عديد الامم ابتلتها الاحداث بمآسي متفاوتة ولكنها استوعبت الدرس وعرفت كيف تتخذ من الضعف قوة لتنسج مستقبلا جديدا وتشق طريقا آملا مثمرا. غير ان مأساة الاندلس وبالتحديد تلك الضربة القاضية المتمثلة في سقوط غرناطة كانت بحق مركزية محور السقوط والسند الذي اعتمدته التاريخ لينسج ملحمة الضياع والته لهذا الشعب المسكين. المذنب والمظلوم (98).

في اواخر القرن التاسع عشر وبالتحديد في سنة 1892 عندما زار احمد زكي (99) الاندلس وقد وصفها في كتابه «السفر الى المؤتمر» سمحت له الفرصة بأن يتقابل مع الاميرة كريستينا الوصية على ولدها الفونس الثالث عشر. وبالمناسبة انعمت عليه بوسام ايزابيل الكاثوليكية وخاطبته قائلة: «ان الاسبانيين وان كانت لهم في القرون الوسطى جنایات على الحضارة العربية. فليس لهم يد في هدم (الزهاء) ولا في تدمير (الزاهرة) التي بناها المنصور بن ابي عامر، بل الجريمة كلها في هذا الباب واقعة على ناصية المسلمين من عرب وبربر» (100) ان مثل هذه القولة تجعل منا في نفس الوقت ابرياء ومذنبين اي مظلومين وظالمين (101) (انفسنا). ولتحديد عمق الاصابة وخطورة الجناية وجب علينا وضع الاشكالية في اطارها الحقيقي واجراء عملية قيصرية قصد استئصال الداء وهذا يتطلب منا :

أ - دراسة وقع مأساة غرناطة وحجم تأثيرها على مستوى الوعي لا الحدث في بعده الزماني والمكاني.

ب - تقصي نتائج هذه المأساة على مستوى المجتمع الاسلامي عامة

(98) راجع: هاوزر ارنولد: الفن والمجتمع عبر التاريخ، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا

(99) من المصلحين الرحالين الذين حبروا مدى تقدم اوروبا وتاخر العالم الاسلامي امثال الطهطاوي، خير الدين، السنوسي، الشدياق...

(100) راجع: الجندي انور: احمد زكي. القاهرة ص 98

(101) نفس العبارات تتردد في الاحاطة ونفح الطيب والبيان المغرب

(كوحدة كاملة) لا على مستوى الموريسكيين باعتبارهم شريحة منفصلة عن كيان الأمة العربية.

ج - ان ما تعاني منه الامة العربية الاسلامية اليوم من تخلف وانحطاط انما مرده الى تراكم تلك الهزات العنيفة والمآسي التي عمقت شرخ التأخر فكبلت الشعوب العربية الاسلامية وعطلت فيها ملكة الابداع الحضارية. ولا غرو فان كل العرب اليوم هم موريسكيون محدثون تلاحقهم مأساة سيزيف وتطاردهم لعنة الغرب في كل مكان وفي كل لحظة.(102)

د - مواجهة الواقع بكل جرأة ومحاولة الاستفادة من تجربتنا الاندلسية وتوظيف نتائجها في معالجة قضايا المستقبل ولا يتم ذلك الا باعتماد اسلوب استقرائي تاريخي اساسه المناهج المتطورة وقوامه العقل الادواتي الفعال، مقدرين موقعنا وحجمنا وموقع الآخرين وحجمهم.

هـ - تشخيص الداء الحضاري الذي يشل العقل ويعطل الارادة ويتمكن من النفوس فيقتلها اسى وحسرة. وهذا بتقديم العلامات والدلالات التي تسببت في هذه العقبات دون الوقوف على اخطاء الاشخاص أو الاستكانة الى الذنب الجماعي بذلك نسحق كل ما يضغط على الانسان ويكبل عزمته ويعقده عن المبادرة. ان معالجة مثل هذه القضايا لا بد ان ترتكن الى منهجية صحيحة ومصطلحات مضبوطة، ولا يفاء هذا الجانب حقه رأيت من الضروري تقديم رصد لتحديد المصطلحات في هذا الباب المستعملة وهي التالية :

- الوعي الذاتي : المحصلة الشعورية وحتى اللاشعورية التي تتماثل فيها قضايا الانتماء والهوية.

- المأساة : الشعور الحاد بحصول مظلمة تسبب انهيارا معنويا يبعث على الحقد ويؤجج غريزة الانتقام واتخاذ كل الوسائل وتوخي كل السبل لرفع التحدي ومواجهة الآخر.

- الوعي التاريخي الجماعي : تلك التراكمات الايجابية والسلبية الناتجة عن الخبرات المتوالية التي عرفتھا المجموعة بكل ما فيها من افراح واتراح وانتصارات وهزائم ونجاح وفشل والمسجلة على مستوى الوعي الجماعي والذاكرة الجماعية والتي يبدو تأثيرها فاعلا على مستوى تحديد التوجه

(102) رودريغو دي زيباس: الموريسكيون وعنصرية الدولة ص 103

الحضاري بمختلف جوانبه : المعرفية السلوكية، التنظيمية...
هذه التوجهات المنهجية العملية والتحديدات المصطلحية من شأنها ان توفر لنا ادنى رصيد لتكوين منظومتنا المعرفية الصحيحة والتي تعتمد الذات الفردية والجماعية لتأسيس توجه حضاري جديد وتكوين عربي اسلامي سليم بعد سبر اغوار الماضي ومحاسبة الوقائع وعرضها على محك العقل حتى يتم التوصل الى معرفة الجذور الاولى للعقدة التاريخية الموجهة ومنها يتم تخلص الذات أو الذوات من كل عقال او مرض ما ضوي فتتحرر وتتصرف لبناء حضارة جديدة.

(4) توظيف المأساة على مستوى الوعي التاريخي :

ان القارئ لتاريخ الاندلس يجد ان بدايته انتصارات مذهلة ونهايته ضربات موجعة (103) فبأي منها يعتبر؟ وبماذا يستفيد؟
هذه القراءة تجعلنا نقف على ما يلي :

أ - محاور ذات بعد ما ضوي : لمحاسبة الماضي ونقده من خلال اعتبار مركزية مأساة غرناطة وتدافع مؤثراتها داخل الوعي التاريخي العربي الاسلامي. وهذا يتطلب استجلاء الحقائق التالية :

- هل ان غرناطة كانت بحق بداية انهيار المسلمين ومؤشر دخولهم في عهود الانحطاط، ام هي حلقة من حلقاته المتأخرة؟

- الوقوف على حقيقة الصراع الديني المذهبي من خلال الحملة الشعواء التي شنّها المسيحيون ضد الموريثيين (طرد، محاكم تفتيش، افناء جماعي، تعذيب، حملات ارهابية، طمس معالم المدنية، القضاء على العادات والتقاليد...) (104)

- من سقوط بغداد الى ضياع الاندلس، بداية رحلة الهيمنة الاجنبية واندثار المجد الذي بناه اسلافنا، هل من حقنا ان نحاسب التاريخ على بداية العد التنازلي لهذه الحضارة التي طالما اظلت خيراتنا الانسانية واستفاد منها القاصي والداني. متى بدأ الانحطاط يلفها؟ هل ان ولادة مجدها الحضاري اقترن ببذرة فنائها وحمل في طياته جراثيم الفناء فكانت البداية والنهاية

DOZY : Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le راجع (103) moyen âge Lieden 1860 vol. I

(104) رودريغو دي زياس: الموريثيون. يقدم شهادات عديدة على مآسي المسلمين في اواخر القرن 16 وبداية القرن 17 عندما ارغموا على اعتناق المسيحية في ظل مملكة بلنسية.

شيئان لا ينفصلان.

الى اي حد يمكن اعتبار مركزية مأساة غرناطة في تصحيح مسارنا التاريخي؟

- ماذا خسر المسلمون بضياع غرناطة آخر معقل للإسلام وللمسلمين في بلاد الاندلس؟ «قال بعضهم خسرنا الحمراء وربحنا ايا صوفيا».

الى اي حد استفاد الغرب من سقوط غرناطة؟ هل حققت حملات التنصير الصليبية اغراضها؟ ما هي علاقة المسيحية الحقيقية المبنية على التسامح ومحو الخطيئة بمثل تلك الجرائم التي اقترفت في حق المسلمين باسم الدين المسيحي؟

ان صح ذلك فهل آن الاوان لان يشعر هؤلاء بتبعة ذنبهم فيكفروا عنه.(105) مثلما فعل ذلك البابا جان بول الثاني عند زيارته لافريقيا يوم 25 فيفري 1992 مقدما اعتذاراته عن كل ما لحق السود من جراء التعذيب الذي تعرضوا له ايام تعمير القارة الجديدة وممارسة تجارة العبيد. الم يشعر الغرب بذنبه نحو المسلمين؟

ب - درس في الحضارة ودرس في التاريخ :

- درس في الحضارة : ما هو حجم الاضافات التي قدمتها التجربة الاندلسية للتراث العربي الاسلامي من جانب وللتراث الانساني من جانب آخر (انظر القسم الاول).

- هل التاريخ الاسباني اليوم بأعتباره امتداد لتاريخ الغرب وللحضارة الاروبية يستتني الحقبة الاندلسية؟ ام يعتبرها فترة فاعلة ويحلها المكانة التي تستحقها ضمن منظومته التاريخية المتكاملة؟ (الجدل الحاد الذي قام بين كاسترو وسانشيز)

ج - عقدة السقوط وصورة غرناطة : تأثير كل ذلك في الوعي التاريخي العربي الاسلامي (مدى وعينا بحدة هذه الحتمية التاريخية ومحاولة تحديدنا لكل حيثياتها حتى يتم تجاوز الازمات في اطار بناء حضارة جديدة).

كل هذه المحاور التي عرفناها ببعدها الماضي من شأنها ان تقدم لنا اجابات عديدة وتحل اشكاليات والغاز مختلفة واذا حاولنا تفحص مكوناتها

(105) رودريغو: في نفس المرجع يتساءل: ماذا ننتظر لتقديم اعتذاراتنا للمسلمين؟

وعملنا على سبر ابعاد توجهاتها العملية فانه يمكننا اعتبار التجربة الاندلسية رافدا هاما، اثرى خبرات المسلمين في مختلف المجالات الحضارية. ودون الاغراق في الرثاء واقامة المآتم واسدال برقع الحزن واليتم، فان القول، تعليقاً على مردودية هذه التجربة يجب ان يكون ايجابيا من عدة جوانب.

- يجب ان نكتشف اخطاءنا ونحاسب أنفسنا بكل جرأة ذلك ان التاريخ لا يصنع الجبناء. كما ان الخطأ طريق الصواب وقبل ان ندين التاريخ يجب ان ندين أنفسنا.

- يجب ان نتخلص من لعنة الماضي التي تطاردنا لما حتى لا نبقى نعيش تلك الحالة التاريخية التي نحاول نسيانها اليوم. وهنا تظهر للعيان فوائد ومضار الدراسات التاريخية بالنسبة للحياة. هذا الحقل تخطاه الغرب منذ نهاية القرن التاسع عشر.(106)

- يجب ان نعتبر بدروس الحضارات الاخرى (مثل حضارة روما في شمال افريقيا) التي اندثرت وتركت بصماتها التي ينظر اليها نظرة اجلال واحترام وفق تقدير الوفاق التاريخي، وعندها نقول، مقارنة، اننا كنا اعظم من روما، وهذا يطول شرحه...

- يجب ان نثبت ان مأساة غرناطة لم تكن وصمة عار في جبين المسلمين وانما كانت في واقع الامر نقطة سوداء، في تاريخ النصرانية (ذلك أن معاهدة تسليم غرناطة اقتضت من صاحب رومة الممثل للسلطة البابوية ان: «يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط اذا امكنوه من حمراء غرناطة والمعاقلة والحصون ويخلف على عادة النصارى في العهود وتكلم الناس في ذلك وذكروا ان رؤساء اجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتن عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر. ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على اهل غرناطة فانقادوا اليها ووافقوا عليها.»(107) ولم يحصل الامان بل أقيمت المجازر.) كما ان الملك الكاثوليكيان فرناند V (FERNANDO V) و ايزابيل ISABELLA أو ISABEL يتعهدان في نفس المعاهدة التي تحمل توقيعهما بتاريخ 21 محرم 897هـ الموافق 25 نوفمبر 1491م : «ان ملكي

(106) انظر نيتشة NIETZSCHE : Seconde considération de l'utilité et de l'inconvénient des études historiques pour la vie Flammario 1988.

(107) المقرئ: نفح الطيب، تحقيق الدكتور احسان عباس، بيروت 1968 ج 4 ص 525

قشتالة هما يؤكدان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكي القيام بكل ما يحتويه هذه العهد من النصوص، ويوقعانه باسميهما ويمهرانه بخاتميهما» (108)

وقد كرر هذا التعهد في سنة 898هـ / 1492م بتوكيد جديد يأمر فيه الملكان ولدهما الأمير، وسائر عظماء المملكة بالمحافظة على محتويات هذا العهد. والا يعمل ضده شيء أو ينقص منه شيء، الان وإلى الابد، انهما يؤكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكي بأن يحافظا، ويأمران بالمحافظة على كل ما يحتويه بندا بندا الى الابد. وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين وتوقيع ولدهما وجمع كبير من الأمراء والاحبار والاشراف والعظماء. (109) لكن الذي حصل هو نقض كل ما جاء في المعاهدة.

— قرن ونصف من (الصراع) والالام من 1492 الى 1610م... ومن الجروح والخضات المؤلة والهزات الروحية العنيفة التي خبرها المسلمون، وعاشوا اوضاعها المتردية خلال تفاعل صراعي هائج حتمته الاوضاع اليائسة وأملته النزعات الصليبية الحاقدة العمياء والنفوس المريضة المتعطشة للدماء : «... فاتبع القتل لمن لا ينتصر وذلك انهم اكرهوا بالقتل ان لم يقع منهم النطق بما يقتضي في الظاهر الكفر، ولم يقبل منهم الاسر. وكان الابتداء في ذلك من اهل غرناطة... وخصوصا اهل واسطتها...» (110)

هذه النصوص دونها شهود عيان عايشوا الاحداث ووقفوا على حقائقها وهي ادانات صارخة لتصرفات جنونية بعيدة كل البعد عن الحس الحضاري. ان مثل هذه العينات وما شابهها لا يجب ان تثير حقدا دفيناً بقدر ما تفصح عن حق قديم وهي وان كانت حادة في حجمها فهي ضرورية وفاعلة في توتراتها عندما يضمورها الحس التاريخي التي يختزنها في وعيه وعلى غرارها يستكنه اسرار مستقبله ويحدث مسيرته التاريخية. كل هذه التجليات التاريخية عندما تدرس بعين بصيرة، واعية موضوعية، فانها تفصح عن الغاز حضارية عميقة قوامها امتلاك الحقيقة ومشروعية

(108) المعاهدة بالنص القشتالي راجع:

محمد عبد الله عنان - نهاية الاندلس القاهرة 1966 ص 250

(109) نفس المرجع ص 251

(110) التلمساني شهاب الدين: أحمد محمد المقرئ: ازدهار الرياض في أخبار عياض القاهرة 1942 ج 1 ص 68

السلطة وبهذا الحجم تكون تعرية الماضي جارحة ولكنها مفيدة وبناءة عندما يضع الانسان ثقته في سلامة القصد.

ان تجربة الاندلس بقدر ما كانت فاشلة في جوانبها السياسية فإنها كانت رائعة في ابداعاتها الفكرية والعلمية والادبية والفنية وعلى الاخص تلك الملحمة الروحية الدينية للمحافظة على العقيدة الاسلامية ومدى تمسك اهل الاندلس باسلامهم حتى وهم في حبال المشنقة. فغرناطة مثلا رغم ما عرفتة من قوة وضعف، وثبات وهزيمة وامن وقلق وهدوء واضطراب فانها كانت تمتلئ بالانتاج وتطفح بالخيرات والرفاه. كل ذلك وهي تعاني من امراضها داخليا وترتعد من الاخطار المحدقة بها من الخارج ورغم ذلك فقد جادت علينا بتأليف ثمينة مثل الاحاطة لابن الخطيب، ونفح الطيب للمقرئ، كما ازدهرت في البلاد «صناعة السفن وصناعة الورق والفخار المذهب العجيب والصناعات الفنية الدقيقة».(111)

وبرز الجانب العمراني بمبانيه المختلفة كالمساجد والقصور (وخير دليل على ذلك قصر الحمراء الذي ما يزال باقيا بنقوشه وزخارفه وهو آية في الروعة والدقة والجمال وتطور الذوق الفني».(112)

هذه الصفحات الناصعة من حضارة الاسلام الاندلسية في غرناطة خصوصا لم يكتب لها البقاء لكونها رائدة في مجالها وقوية في تأثيرها وفاعلة في محيطها وخارجه ومثيرة لكل الخبرات البشرية التي تقبلتها فاستفادت منها وافادت خاصة اوروبا.(113)

5 - محاور لبناء المستقبل :

في بداية استطلاعنا لتفاعلات هذه المحاور لا بد لنا من الوقوف عند بعض النقاط واثارة بعض الاسئلة قصد تعرية الحقائق وادراك ابعاد الاحداث التاريخية ومدى تأثيرها في المحصلة المعرفية التي تكيف شخصية شعبنا وتميز ذاته وستكون هذه الاسئلة على درجة من الاهمية والخطورة

(111) الحجي عبد الرحمان: الحضارة الاسلامية في الأندلس، بيروت 1969، ص 56

(112) بروفنسال ليفي: الاسلام في المغرب والاندلس، ترجمة الدكتور عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، القاهرة 1956 ص 166

(113) توينبي ارنولد: الاسلام والغرب والمستقبل، ترجمة الدكتور نبيل صبحي بيروت 1969.

لاعتبارات عديدة سيتم ادراجها في مسار التحليل والقراءة النقدية التي
تمكننا من اكتشاف الماضي وفهم الحاضر حتى نبني المستقبل.

أ - هل ان الوعي التاريخي العربي الاسلامي تألم فقط لمأساة غرناطة
وانكسرت شوكتة لفقدان المسلمين دار العز والثراء بالاندلس، ام ان هناك
عديد المآسي الاخرى التي ارهقته واقضت مضجعه واربكت مسيرته؟

ب - الى اي حد يمكن اعتبار مأساة غرناطة مركزية على مستوى التأثير
في المسار الحضاري الذي تعيشه امتنا العربية الاسلامية اليوم؟

ج - من تحمل تبعية هذه المأساة؟ هل من الضروري الخوض في جدلية
الادانة او التبرئة لاسلافنا؟ وما هي الفوائد التي نرتجىها من وراء اثاره
مثل هذه الاشكاليات؟

د - كيف تفاعل المجتمع العربي الاسلامي (كجسم واحد) مع تلك المأساة
وما هو مدى وقعها وتأثيرها في مسيرة الشعوب العربية الاسلامية قديما
وحديثا في شرق البلاد وفي غربها؟

هـ - هل قلص البعد الزمني التعامل مع هذه المأساة؟ وما هي تأثيرات
كل ذلك في البنية الوظيفية للتراكمات اللاشعورية على مستوى الذاكرة
الجماعية؟

و - الى اي مدى يمكن توظيف هذه التجربة خاصة في جانبها المأساوي
ومعاناتها، لتخليص المجتمع العربي الاسلامي مما يعيشه من محن مزمنة؟
للقوف على ابعاد هذه التساؤلات يجب ان نقول ان المجتمع العربي اليوم
بكل مأساه هو نتيجة افرازات حضارية وتراكم خبرات وتجارب ماضوية
حفل بها تاريخه قبل الاسلام وبعده ولا غرو ان تكون هذه المسيرة
الجماعية مكبل بالاسى ومحملة بالهموم فلكل الشعوب نصيبها (من سره
زمن ساءته ازمان). غير ان ما نلاحظه اليوم هو ان تعامل الشعوب العربية
الاسلامية مع العناصر التاريخية المكونة للاحداث يكاد يكون معدوما، وكأن
هذه الشعوب تعيش خارج الحقل الذي تتفاعل فيه معطيات الاحداث. لذا
فهو في أغلب الاحيان متقبل لا فاعل، متأثر لا مؤثر. وهنا تكمن الخطورة في
رصد الاحداث. فعلى اي مستوى يمكن ان نقف على حقيقة هذه الازعاج؟
على المستوى الاعلى (السلطة المسيرة) أو على المستوى الشعبي (الارادة
الجماعية)؟

ان قراءة التاريخ العربي الاسلامي تبقى في معظمها قراءة احداث مسرودة، وارادات حاكمة في غياب وعي جماعي صانع للحدث. وكم نحن في حاجة اليوم الى منهجية تاريخية متطورة رائدة وشجاعة على غرار المدرسة التاريخية والفيلولوجية الالمانية الحديثة التي تنادي بتطوير الحس التاريخي في تفاعل دائم ومستمر من مجريات الاحداث ومتطلبات الحياة حتى نتعري في مجرى السيولة الزمنية ونغتسل من اوهام المحضور لنستبصر العجائب وندرك كنه الوقائع.

نحن الان في «معركة شرسة مع التاريخ ومع انفسنا» (114) مع التاريخ لسوء تقديرنا وفهمنا له، ومع انفسنا لاننا ظلمناها باغراقها في الاوهام وايغالها في متهات الاسطورة وتشكيل الشخصيات والاحداث المبالغ فيها وكلها تهيمن هيمنة مطلقة على الوعي الجماعي «للشعوب العربية الاسلامية (متقفيا وأميينها)» (115)

في هذا الاطار حاولت تسجيل بعض انطباعات المؤرخين والدارسين لوقائع التاريخ الاسلامي، وكانت مأساة غرناطة عينة من أبرز العيّنات. فماذا اكتشفت؟

أ - على مستوى المصطلح اللغوي الموظف في قراءة الحدث التاريخي : كانت مأساة غرناطة عقدة جارحة في نفس كل من عالج هذا الموضوع التاريخي حيث وردت التعابير مختلفة ولكنها معبرة عن وقع اليم ومجسمة لنظرة تشاؤمية محبطة للعزائم. فمن خلال 821 مؤلف منهم :
- 113 كتاب (تاريخ العالم الاسلامي، تاريخ المغرب والاندلس تاريخ الحضارة...)

- 126 دراسة : اندلسيات

- 158 مقال

- مقالات في 4 موسوعات (دائرة معارف الشعب، دائرة معارف القرن العشرين، الموسوعة الاسلامية، دائرة المعارف...)

- 220 كتاب : موزع بين مختلف الاختصاصات : اجتماعية، سياسية، أدبية، وفنية.

(114) مالك بن نبي: شروط النهضة، القاهرة 1969 ص 17

(115) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، تونس 1984 ص 11

ومن خلال ما يقارب (1000) الف قصيدة وأكثرها من الادب الاندلسي والادب المشرقي والادب المغربي، ومن خلال عديد كتب الرحالة نلاحظ ان ذكر غرناطة اقترن دائما بالمأساة واتخذ رمزا لانهايار الحضارة العربية الاسلامية ومؤشرا لدخول المسلمين الانحطاط والتأخر.

فبين «الفردوس والمفقود» (116) ... «الفردوس الموعود» (117) ظل الشعور الجماعي العربي الاسلامي محملا بكل الاسى والهموم، كما بقي الوعي مكبلا باغلال النظرتين :

— نظرة الافتخار بحضارة اندرست ومضت والتغني بمجد تليد اخذ نصيبه من الزمن.

— نظرة الخوف من الحاضر التعيس الذي يشل العزائم ويعطل لغة الامل والمستقبل.

ب — ان ما لاحظته على مستوى الكتابات التاريخية والدراسات المختصة بالتراث وذلك من خلال نوظيف البنية الكلامية باعتبارها دلالة تتجلى فيها ابعاد المعيش الشعورية واللاشعورية مكنتني من تجريد الجمل التالية التي استعملت كتعبير عن حدة وقع الأزمة :

— «ضياح مجد الاسلام والمسلمين بضياح غرناطة...» وقد ترددت هذه الجملة وما شابهها ما يقارب 27 مرة في عديد المؤلفات. (118)

— اعتبار «سقوط غرناطة بداية عصور التأخر» وقد وردت ما يقارب (18) مرة (119)

— «بسقوط غرناطة فقد المسلمون آخر معقل للاسلام في الاندلس...» وقد

116 زكي أحمد: السفر الى المؤتمر أو أنور الجندي: أحمد زكي طبع المصرية العامة للتأليف. القاهرة ص 99 - 100

117 مؤنس حسين: رحلة الاندلس ص 7

118 راجع على سبيل الذكر المؤلفات التالية:

— عبد الله عنان: دولة الاسلام في الاندلس

— عبد الرحمن علي الحاجي: التاريخ الاندلسي

— عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين

119 راجع: — ليفي بروفنسال: الاسلام في المغرب والاندلس

— الدكتور مصطفى خالدي: التبشير والاستعمار في البلاد العربية

— عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة (بداية الانهيار والتحول في العالم) حيث يقول: «... فكانما تبدل الخلق من أصله او تحول العالم بأسره. وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث.»

تواترت هذه الجملة تباعا في عديد الدراسات والمقالات (108) مرات.(120)
- «بسقوط غرناطة دخل المسلمون عصر الانحطاط» وهي اكثر الجمل
ورودا وقد بلغ عدد احصائنا لها (361 مرة (121)
- «غرناطة... وتراجع الحضارة الاسلامية...» وقد بلغ عدد استعمال هذه
الجملة (7) مرات.
هذا التمرکز المحوري حول «مأساة غرناطة» ميز الوعي التاريخي بما
يلي:

- حدة وقع الازمة
- الشعور بالهزيمة امام تحدي الغرب الحضاري اليوم من خلال عملية
اسقاط الماضي على الحاضر.
- الهروب من الماضي والانكفاء داخل ملاحم البكاء خوفا من مواجهة
الحاضر.
- النزعة المأساوية التي تؤكد عليها هذه الظاهرة النفسية.
- غياب عملية توظيف هذه المأساة لتحقيق اشياء ايجابية (اليهود
يحتلفون بنفس الذكر - لكن من وجهة نظر مغايرة وفي اطار فلسفة نقدية
للتاريخ).
- ارتباطنا بالبعد المكاني - مبالغ فيه - واعتباره عاملا اساسيا في صنع
الحضارة وخلق المعجزة التاريخية.
- انعدام وصل الحدث التاريخي بما تلاه من وقائع وهو ضرب من القفز

(120) راجع: غوستاف لوبون: حضارة العرب

- لوثورب ستوارد: حاضر العالم الاسلامي

- محمد عبد الله عنان: دولة الاسلام في الاندلس

- الدكتور حسين مؤنس: رحلة الاندلس.

(121) راجع: الدكتور عمر فروخ: العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الابيض
المتوسط

- شاتليه: الغارة على العالم الاسلامي

- شكيب ارسلان: مختصر تاريخ الاندلس

- عبد الرحمان علي الحجى: نظرات في دراسة التاريخ الاسلامي

- محمد عبد الله عنان: نهاية الاندلس

- اندلسيات: المجموعة الأولى والثانية، بيروت 1969

على الاحداث والإرتكان الى فترة معزولة في اطارها الزماني والمكاني.
— عدم استيعابنا للماضي وعجز وعينا عن ادراك الصيرورة الزمنية
والحتمية التاريخية.

— اعتبار غرناطة نهاية تاريخنا : فماذا بعد غرناطة؟

ان استقراء مثل هذه الشرائح المعرفية يجعلنا نقف على قضية مصيرية
تتطلب منا عملا سريعا وناجعا تمكننا من اعانة وعينا على الخروج من هذه
الازمة التي طالما شدته الى الوراء وحتى لا يستفحل به الامر. ذلك ان كل
المعطيات المقدمة تجعل التراث المأساوي في وعينا يدخل في علاقات تغاير
وتضاد وتنازع (122) مع كل التحديات المفروضة على المجتمع العربي
الاسلامي - وهنا يطرح الموضوع على مستويين :

أ - الصراع الموضوعي على مستوى الوعي : ويتطلب المواجهة بين حقائق
الامس ووقائع اليوم. (123) وهذه الظاهرة قوام تاريخ البشرية جمعاء وتمثل
الجنب الايجابي لهذه الملحمة التاريخية. واذا انقلب الصراع ليصبح سالباً
فعند ذلك يحدث تغاير واضح كثيراً ما تتشابك فيه الجدليات القائمة بين
الماضي والحاضر لتسفر في النهاية عن قطيعة حادة او عن تصادم وهزات
عنيفة داخل نفسية المجتمع. عند ذلك يتولد الشعور بالمأساة الدائمة
والمتواصلة - وهو الشعور الذي لازم مجتمعاتنا ازمانا طويلة - دفع بها الى
الهروب من كل جوانب الحياة الوجودية والانكفاء داخل منظومة التقشف
والتزهّد والتصرف حتى في التفكير... هنا يجب اعادة بنية الوعي بالماضي
وتوظيفه في الحاضر وأحكام العلاقة بينهما وهذا العمل يعتبر رائداً لانه من
اهم المسائل التوجيهية : تلك التي تقوم على الموافقة بين ثقافة الماضي وثقافة
الحاضر وثقافة المستقبل لاننا لا نملك الا ثقافة ماضوية، نعيشها في
حاضرنا ونحلم بها في مستقبلنا، وتبقى اعادة بناء الثقافة مرتبطة اساساً
باعداد كتابة التاريخ الذي يمكننا من اعادة تأسيس بنية الثقافة داخل
وعينا. ولهذه الاسباب ارى من الضروري اعادة النظر في قراءة التاريخ من

(122) الجابري محمد عابد: الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة بيروت 1973 ص 61

(123) راجع: البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة. بيروت 1983 فهمي جدعان: أسس
التقدم

ومحمد عابد الجابري: الاصالّة والمعاصرة

ناحية، ومن ناحية اخرى مراجعة النظر في قضية تأسيس ثقافة جديدة تتناغم داخلها عناصر الماضي والحاضر والمستقبل لتنشئ وعيا قادرا على المبادرة والالتزام والافادة. هذا الوعي يجب ان يركز على اسس قويمه.

ب - الصراع الموضوعي على مستوى المنهجية :

نحن اليوم على مستوى وعينا المعيش الذي يجمع بين الماضي والحاضر (مع الماضي بأفكارنا ومع الحاضر بابداننا) وعلاقتنا بالماضي يجب ان تتحد من خلال اختيارنا لما هو انسب لوضعنا من كل التراكمات التراثية. كما يجب ان نعيد النظر في صراعات العصور الماضية لا بالطريقة التي اعتادها اسلافنا، لان ذلك يجعلنا ننخرط في منهجيتهم ونبقى مشدودين لمفاهيمهم. والى جانب استيعابنا للماضي واختيارنا للانسب لا يجب ان تكون قراءتنا، مثلما ذكرنا سابقا، مجزأة تتسم بالقفز على الاحداث من ذلك «مأساة غرناطة» : لا يجب ان ينظر اليها كظاهرة منفردة ومعزولة في تاريخ المجتمعات العربية الاسلامية كما ان مشكل الموريسكيين لا يجب ان يعامل على انه مشكل خاص بهذه الفئة النازحة والمطرودة لذلك لا معنى للوهم وانتقادهم من خلال استقراء أوضاعهم الخاصة فهذه المنهجية المفرغة من مدلولها للناتج الحضاري العام تخل بقدرتنا على مسايرة الاحداث التاريخية المعاصرة او حتى مشاكل العصر الحالية (اذا لم يكن المجتمع متراسا والتاريخ واحدا فلا معنى لاي مستقبل جماعي في خضم التكتلات التي نعيشها اليوم والمجتمع الاسلامي وحدة صماء كالدين الاسلامي...)

في خضم هذه التركيبة بين البناء الموضوعي للوعي واختيار المنهجية فاننا نلاحظ ان اكبر خطر يهددنا هو خاصة «الزمن الثقافي» الذي يعيشه وعينا اليوم. فهو خليط من الازمنة المتفاوتة بكل ما فيها من صراعات وتناقضات وتآلف. هذا التفاعل الحيوي يجعلها متداخلة في وعينا حتى كدنا ان نفقد الحس التاريخي ونبقى اسرى للماضي ننعم ببطولات اسلافنا ونردد مجدنا التليد وحضارتنا المسلوقة. هذا التداخل كثيرا ما ينتج عن التقدير الاحادي للحدث وبعثرة الوقائع والنظر اليها متباعدة منفصلة الواحدة عن الاخرى. فاذا أثرنا موضوع سقوط بغداد على ايدي الماغول وغرناطة على ايدي النصارى، وحديثا سقوط كل البلاد العربية تحت ضربات الاستعمار الحديث، فاننا نجعل من تاريخنا وحدات زمنية منفصلة وأنها لاتهم مجتمعا

واحد بل تتعلق بمجتمعات مختلفة زمانا ومكانا. وهكذا يكون حضورها التاريخي معدوما. ومن مساوئ هذه الظاهرة انها تؤدي بنا حتما الى قراءة العلاقة بين تاريخنا الاسلامي والتاريخ العالمي بطريقة معكوسة تتضارب فيها الوسائل وتختلف الطرق وبالتالي تتناقض الاحداث وتضيع الفائدة. لذا لا بد لنا من طريقة تضمن لنا الانخراط في المنظومة التاريخية البشرية العامة. وهذا لا يتأتى إلا بواسطة روحية تاريخية نقدية معقلنة لا تهدف الى القضاء على العاطفة (الايمان والروح) بل انارة التاريخ لاعماق نفوسنا الجماعية، خاصة ونحن نواجه اليوم تاريخا غريبا تتناغم فيه الاحداث من اثينا الى روما الى القسطنطينية الى غرناطة... هذه القراءة للتاريخ تعتمد مركزية الثقافة الغربية مع تهميش دور الحضارات الاخرى وخاصة الحضارة العربية الاسلامية او تشويه ما افرزته من ابداعات ولمواجهة هذا الوضع لا بد من اعادة ترتيب العلاقة بين اجزاء تاريخنا على اسس علمية وبروح نقدية تعتمد العقل اكثر مما تعتمد العاطفة...

الخاتمة

من خلال عرضنا للتجربة الاندلسية يتبدى لنا جليا ان ما غنمه العرب المسلمون من الاندلس كثير جداً، وما افادوا به الحضارة الانسانية هام وخصب وان مستقبل الايام يبشر بكل خير في حقل الدراسات الاندلسية. ذلك ان الاعمال، المنصفة للحضارة العربية الاسلامية بدأت تكتسح الفضاءات المعرفية المعاصرة ولا ادل على ذلك من كتاب (رودرغو دي زياس: الموريكيون وعنصرية الدولة) الذي حاول فيه صاحبه انصاف حضارة الاسلام بجزيرة ايبيريا وكشف القناع بواسطة الوثيقة التاريخية التي تقيم حجة دامغة على ادانة عنصرية الدولة وتعصب المسيحيين الاعمى فهو ينادي بتقديم اعتذارات الاسبانيين الى المسلمين اليوم.

لقد انتهى عصر الرقابة الكامنة والضمنية في اسبانيا العصر الحديث. كما ان قراءة النصوص والوثائق اصبحت لا تقف عند حدها المعتاد (اي السكوت عن المحذور... والمحذور هو ما لحق بالمسلمين ايام التهجير) وما على اسبانيا اليوم الا ان تعتذر للمسلمين مثلما فعلت مع اليهود...

اما دورنا نحن كمثقفين فانه يحتم علينا التعامل مع الحدث بجدية وحذر وبموضوعية ومنهجية علمية متطورة. نحن اليوم مطالبون اكثر من اي وقت مضى بالاستجابة للتحويلات المعرفية التي عرفتها الساحة الغربية.

ان ما تواجهه الامة العربية الاسلامية اليوم من تحديات داخلية وخارجية تفرضها الازواضع والنظم الحديثة والمستحدثة وتؤكد الصيغ المطبقة والمنطق المعمول به، تحتم علينا الاعتبار بدروس الماضي والاقلاع عن العوائد القديمة التي لا ترتجي منها فائدة في كل الميادين العلمية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية... ذلك ان عصر الحداثة الذي ننشده اليوم يملئ علينا مواكبة الاحداث والتفاعل معها بالاليات التي تتطلبها مختلف المراحل : مراحل البناء والتشييد وفترات النقد والتحليل. وما انعقاد مثل هذا المؤتمر في مثل هذه الظروف العالمية العصبية والبحث في معضلة تاريخية حساسة الا دليل على ما تعيره الاوساط المثقفة لاهمية التعامل مع الحدث التاريخي واعادة ترتيب اجزاء المنظومة المعرفية العربية الاسلامية التي ما تزال تعيش حربا بلا هوادة بين التراث والمعاصرة. كما ان عرض

التي ما تزال تعيش حرباً بلا هوادة بين التراث والمعاصرة. كما ان عرض التجربة الاندلسية للمسلمين وما نالهم في اسبانيا اليوم خير دليل على مواجهة الماضي بكل جرأة وثقة في النفس. فغرناطة الامس التي اعتبرناها وصمة عار في جباه المسلمين هي اليوم عزّ لنا، لاننا قدمنا من خلالها الخير العقيم وافدنا البشرية ايما افادة ولعل مؤتمر السلام في اسبانيا 1991 هو مؤشّر خير لعودة المسلمين لحقل الفعل وصنع الحدث فماذا سيجني المسلمون من اسبانيا القرن الواحد والعشرين؟ وماذا سيجني العالم لو انصف المسلمون وعادوا الى حقل الانتاج والابداع في اطار منظومة البقاء الانسانية وسنّفونية الخلود البشرية التي خفتت فيها الحان المسلمين لفترة معينة وها هي تعود اليوم... غرناطة الامس، تلك الصورة الباهتة للحوار الساخن الاسلامي المسيحي ستعود اليوم يانعية براقّة تحمل الود وتلوح بالوفاق بين المسلمين والمسيحيين ومختلف الفئات (ذلك الحوار الذي سيعيد الامن والطمأنينة لابناء الامة التي روعتها الايام طويلا واسقتها الكأس المر حتى الثمالة).

ومثلما يحتفل العالم بسنة 1992 باعتبارها بداية خير واعدة للبشر التي عرفت فيها اكتشاف القارة الامريكية وظهور الرحلات الكبرى وانطلاق النهضة العلمية فانه لزاما علينا ان نحیی ذكری استعادة غرناطة في جو أمل محمل بطموحات أمة تنشد تخليص وعيها من ادران المكائد الحضارية والمضالم التاريخية. فشكرا لمن ساهم في هذا المؤتمر والى الف تحية لمن سهر على انجابه وسخر كل الامكانيات للتعريف بهذا الفيض الحضاري العربي الاسلامي للناشئة، وسهل التعامل مع ابداعات التجربة الاندلسية باعتبارها جزء لا يتجزأ من المخزون التراثي العربي الاسلامي.

الدكتور نور الدين الصغير